عِمتَ مساءً

يا صديق

بشار عبد الله طيفور

عِمتَ مساءً يا صديق

رسائل قلبيّة

٢٠٢٢

بشار عبد الله طيفور

تصميم الغلاف: لبنى التكلة – غيداء بدران
التدقيق اللغوي: غيداء بدران

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء:

إلى القلوب التي أرهقها التعب..

إلى الصدور التي ملأها الهمّ والحزن والكمد..

إلى العيون التي أرّقها القلق..

وإلى الأماني التي طالَ انتظارها..

هذا الكتابُ تنهيدةُ راحةٍ لكم جميعًا..

احرص على ما ينفعكَ، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابكَ شيء، فلا تقل: لو أنِّي فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قدرَ اللهُ وما شاء فعلَ، فإنَّ "لو" تفتحُ عملَ الشيطان.

- سيدنا وحبيبنا محمد رسول الله ﷺ

-1-

عِمتَ مساءً يا صديق..

في غزوة الأحزاب، وفي أثناء حفر الخندق، شكا الصحابة الكرام إلى رسول الله ﷺ صخرة لم يستطيعوا كسرها، فجاء رسول الله ﷺ وأخذ الفأس وقال: "بسم الله، فضرب ضربة كسر منها ثلث الحجر، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا، ثم قال: بسم الله، وضرب ثانيةً فكسر ثلث الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا، ثم قال: بسم الله، وضرب ضربة كسرت بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا".

وفي غزوة الأحزاب كان المسلمون محاصرين داخل المدينة، لا يستطيعون الدخول ولا الخروج منها، وكانت القبائل العربية بأجمعها متكالبةً على المسلمين، ولك أن تتخيّل وقع مثل هذه البشرى العظيمة على القلوب في هذا الموقف الّذي بلغت فيه القلوب الحناجر، وبلغَ فيهِ اليأس ذروته، وانقسم الناس عند سماع هذه البشرى إلى فريقين:

الفريقُ الأول هم الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، ومن شدة حبّهم وإيمانهم وتصديقهم لرسول الله ﷺ صدقوا البشرى العظيمة وفرحوا بها، وكما أخبر الله تعالى عنهم في كتابه الكريم: {وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا}

أما الفريق الثاني وهم المنافقون فكان قولهم: {وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا}، أعمى اللهُ قلوبهم فكفروا بوعد الله وقالوا: يُبشّرنا بالشّام وفارس واليمن، ونحن لا نستطيع الخروج من المدينة لنؤمّنَ قوتنا! ومضت السّنوات وتحقّق وعدُ رسول اللهِ ﷺ الّذي لا ينطقُ عن الهوى، وفُتحت الشّام وفارس والرّوم.

كتبتُ لك هذه القصّة في مقدّمة الكتاب لحاجتنا الشّديدة لها، فقد اعتمدتُ في هذا الكتاب على آياتِ الله وأحاديث رسوله الكريم ﷺ، لذلك أريد منك عندما تقرأ أيَّ وعدٍ ربّاني من كتاب الله أو من نبيّه الكريم محمد ﷺ، أن يكون قولكَ قول المؤمنين الصّادقين:

{قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا}

ولكيلا تقول قولك المعتاد: الظّروف صعبة!

فعصرُ المعجزات ولّى ولكنّ ربّ المعجزات حيٌّ لا يموت.

بعدما أرهقني انتظارُ ذلك الأمر، وقفتُ ككلّ ليلةٍ أسأل الله أن يأتيني به، فخطر في بالي كلّ ما مررت به، لقد كان خير الله يتوارى في كلّ منع، فيدفعُني التأخير لأن أسأل الله به في كلّ دعوةٍ وفي كلّ صلاة، فأراه يكرمُني يوماً بعد الآخر بأن أدعوَ بأشياءَ لم أفكّر بها قطّ، كان كلُّ أمرٍ يكرمُني لأن أدعوَ به يتحقّق بمعجزة، أيقنتُ حينها بأنّ ذلك التأخير كان خيراً بكل تفاصيله، وأنّهُ لم يتأخر شيءٌ عن عبث، لقد فهمتُ فيه معنى قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾، وأيقنت أنّه مهما عظم المطلوب فالله أعظم، وآخر ما همست به بدعائي أن: يا ربّ لقد طال هذا الأمرُ فلتحدث معجزة.

-2-

عِمتَ مساءً يا صديق..

كالعادة ريشتي اليوم مُستبشرة، ولِمَ لا ولها ربٌّ هو على كلِّ شيءٍ قدير..
أيحقُّ لها أن تكتب الحزن والتشاؤم ورسولنا الكريم ﷺ يقول:
"بشِّروا ولا تنفّروا"؟!
وبعد وعد الله: {قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّن}

أعود اليوم، لأُذكّرك بأنَّه لا شيء يصعب على خالق الكون، هي لحظات فقط:
ليُعيد الله ترتيبك.. ويداوي جرحك..
ليغفر ذنبك.. وتنصع صفيحتك بياضًا..
ليؤتيك من رزقه.. ويغنيك من فضله..
ليُبدِل خوفك أمنًا.. وقلقك راحة..

هذه اللحظات تحتاج منك فقط يقين الإجابة، وإيمانًا بأنَّ الله ما نسيك: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ}.

لقد بكيت! بكيتُ كثيراً!

ليست عيناي فقط، قلبي بكى أيضاً!

ولم أستطع أن أفعل أيّ شيء!

لم أجد أيّ حلول!

ولم أتفوّه بأيّ كلمة!

إلا بكلمةٍ واحدة، بنداءٍ طرق أبواب السّماوات:

يا ربّ.. يا ربّ..

ومن ثمَّ غفوت، نمتُ وتركتُ قلبي بين يدي الله.

نمتُ، وأنا مرتاح، إنّه شعور السّكينة من آيات الله، ولقد همسَ لي مصحفي بآية:

﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾

-3-

عِمتَ مساءً يا صديق..

وصلني أنّكَ تبكي ولا تسألْني كيف عرفت، فقلبُ كلِّ من فينا يبكي، ولكن ما العيبُ في البكاء يا صديق، أوَليست هذه الدّموع من مخلوقات الله؟! وسبحانه ما خلقها فينا عبثًا!

في الابتدائيّة علّمونا أنّ وظيفة تلك الدّموع هي غسل العيون، لكن عندما كبرنا فقهنا أنّها لتطهير القلوب أيضًا، لنبكِ إذَن أمام الله يا صديق فكلّ الّذين بكوا لله ضحكوا، لنبكِ ولا نسمح لهذا الدّمع بأنْ يبقى حبيسًا فيغلي عيوننا أكثر!

ولنخبره أنّا ها قد عجزنا فأرِنا معجزاتك يا الله.

وعلمتُ شيئًا آخر يشعر به قلبي مثلكَ، علمتُ أنّ في قلبكَ أمنيةً يكاد قلبكَ ينفطرَ لتصل إليها ولا آمال تُسعفك للتّفكير بها حتّى، كلُّ الطّرُق تجاهها مؤصدة وكأنّ سنوات الأكوان الضّوئيّة قد حالت بينك وبينها!

هي الأمنياتُ من مخلوقاتِ الله أيضًا، فهو خالقُ القلبِ وشعوره وحاشاه أن يُلقي بها في قلبك عبثًا!

لكن إن مُنعَ عنّا ما نُحبّ فإنّه من تدبير عالم الغيب والشّهادة الّذي يُبصر ما لا نبصره، فهو يُبصر نهاية الدّرب ويرى المشهد بأكملهِ، أمّا نحنُ فلا نرى إلّا البدايات.

ولن أستطيعَ أن أصفَ لك عوضه فهو من بلاغة القرآن:

{وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا}.

بعض الأمنيات لا نستطيع إلّا أن نربّت على قلبها باليقين لنخبرَها أنّ الله على كلّ شيءٍ قدير، وأنّها آتيةٌ كالّتي سبقَتها.

-4-

عِمتَ مساءً يا صديق..

الطّريقُ طويلٌ يا صديقي، طويل
لكنّني أذكّرُ قلبي بأحاديثِ مَن سبقونا
كانوا يحدِّثونني عنه
يروون لي حكاياتهم، عثراتهم وتضحياتهم..
يحكون لي عن لحظةِ ما قبل الانهيار
قالوا لي بأنّها لم تكن مرّةً واحدة..

كانت كلمةُ: " إنّها النّهاية" تلازمُ خساراتهم
ما وقعوا مرّةً إلّا وقالوا إنّها النّهاية!
لكن في كلِّ مرّةٍ كان هنالك لطفٌ خفيٌّ من الله يقيلُ عثراتهم، نورٌ خافت يُضيء قلوبَهم، يهمسُ لهم بصوتٍ خفيّ:
أنت مؤمن.. أنت مؤمن.

{وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ}

في أحلكِ ساعات الظّلام

يتصافحُ كلٌّ من الشّمس والقمر

وهما آيتان من آياتِ الرّحمن

ليزفرا لكَ صبحاً جديداً

وكأنّهما يقولان لك:

عسركَ الّذي يخنقك، سيتصافحُ مع اليسر

ليزفرا لك أمنيتكَ قريبًا

فلا تجزع، لا يوجد نهار جديد.. بلا ليلٍ يسبقه.

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾

-5-

عِمتَ مساءً يا صديق..

تسعى وتسعى فترى أنّ حصادَ سعيكَ هذا لم يبلغ رأس مالِ السّعي حتّى، وهذا ما يُحرق شغفك، أشعر بأنّ قصّتكَ تلك تُحاكي قصّة السّلحفاة والأرنب، أنت تشعر أنّكَ كالسلحفاة في هذا السّباق، فمهما أسرعتَ ومهما اجتهدتَ هنالكَ من يسبقكَ دائمًا، وصحيحٌ أنّكَ تحملُ في جوفك دأبًا وسعيًا أكثر من غيركَ، لكن هذا الواقع، أنتَ دائمًا تُهزم لضعفٍ لا تعرفُ سببهُ.

لا عليكَ يا صديقي، يقول الإمام الشّافعيّ رحمه الله:

"ليسَ الطريقُ لمن سبقَ، إنّما الطريقُ لمن صدقَ".

فقد تتعبُ اليوم وتكدّ وتسعى وتزرع، ثم تأتي لأيّام الحصاد بعدها، لتُصادفكَ خيبةٌ في دربكَ، فتنتشلُ منكَ أمل الطّريق، فتقعد ملومًا محسورًا تتساءل:

ما الفائدةُ من أن أكمل؟!

الطّريقُ واضحٌ من بدايته!

ذلك ما ابتغيت الوصول إليه..

سؤال: لماذا أكمل؟!

تُكمل يا صديقي لأنّكَ حينما اخترت السّير في هذا الدّرب، ما كانت نيّتك وقتها أن تخوض السّباقات مع النّاس، ولا أن تتطلّع إلى نتائجهم في كلّ حينٍ، فتتحسّر على حالكَ.

أنت ستُكمل لأجل ذلك الصّدق الّذي زرعهُ الله في جوفكَ حينما رسمتَ على خارطة الدّرب وجهة الوصول الأسمى والأهمّ، وهي رضاه وإخلاص العمل إليهِ سبحانهُ وتعالى، يا صديقي نحنُ في هذه الحياة لا نخوض سباقًا، إنّما نسلكُ طريقًا منفردًا لنيّةٍ لا تُزاحمها تلك السّباقات.

فأكمل يا صديق، فَوَالله ما هي إلّا بضعُ عقباتٍ يضعها الله في طريقكَ ليختبر بها صدقكَ، فإن أكملتَ وصدقتَ، جزاك أجر سعيك بأحسن ما يكون، وتذكّر أنّ تجارةَ الدّنيا قد تربح مع الجميع، أما التّجارة مع الله لا تُعطى إلّا لعباده المخلصين.

وتذكّر أنّكَ تُنفق من وقتك وصحّتك وشغفك سرًا وعلانيةً في سبيل الله، وتلك تجارة مع الله والتّجارة مع الله لا تبور: {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ}

شعرتُ وقتها بالضيق وهو يتسلّلُ من بين أضلعي، شعرتُ بهِ وهو يُطبقُ على أرقّ مضغةٍ في جسدي، شعرتُ به وهو يَهوي بقبضتهِ على قلبي، لقد حسبَ نفسهُ ذكيًا حينَ باغتني بأضعفِ ما فيّ، لكنّني همستُ لقلبي وقتها: بسم الله عليكَ يا قلب حتى تهدأ، يا قلبي فيكَ اسم الله، والله أكبر منهُ ومن كلّ شيء.

-6-

عِمتَ مساءً يا صديق..

ما زِلتُ أفتح المصحف كل يوم لأرى رسائله لي، وتصلكَ البعض من تلك الرّسائل في نصوصي دون انقطاع..

أنا أقرأ هذه الرّسائل كلّ يومٍ بنفس اللهفة، وعجيبةٌ هي بلاغتها على قلبي، ولو أنّي قرأتُ وسمعتُ الآية نفسها في كلّ يوم وفي كلّ ساعة، وبنفس صوت قارئي المفضّل لَسحرتني باللهفة الأولى ذاتها، تربّتُ آياتُ الله على قلبي في الوقتِ الّذي لا يستطيع فيه أحدٌ في الكون أن يحملَ هذا الهمّ عن صدري.

عندما يرى الناس كلماتِ الأشخاص الّذين يحبّونهم، لا يرَونها عاديّةً أبدًا..

فمرحبًا.. وصباح ومساء الخير، ليست كتلك الّتي تخرج من أيّ شخصٍ آخر، يقرؤون كلامهم، ويحتفظون به ومن ثَمّ يعيدونه، يضمّونهُ إلى صدورهم كلّما اشتاقوا لهم، يتنفّسون تلك الكلمات ويعيشون عليها، وهكذا هو أوكسجين الودّ يأتي من الحبيب فقط.

وأنا متى ما ضاقت دُنياي أحتضنُ كلماتِ حبيبي الأعظم: "الله" سبحانهُ وتعالى، ومتى وأنّى شئتُ أنا أقرأ كلام الله، أتدري ماذا تعني كلمة: "كلام الله" ؟!

كلام اللهِ هو القرآن الكريم، تلاوة القرآن تعني أنّ ملك الملوك بعظمته يخاطبك في كلّ آية، فمرةً يقول لك:

{إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا}

وتارةً يخاطبك ويُثبّتكَ بقوله:

{وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ}

يراك وقد خذلك الكون كلّه فيربّت على قلبكَ بقوله:

{مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ}

يراك قد يئستَ وقنطتَ فيُذكّركَ بقصص أنبيائه، يقول لكَ أنّ امرأة زكريا قد أنجبت وهي عاقر، وزوجها عجوز، وأنّ أيوبَ قد انكشف ضرّه وشُفيَ بعد صبرٍ طويل، وقد جاءه العوض مغتسلٌ باردٌ وشراب، وأنّ يونس قد نجّاه الله من ظلماتِ الحوت بتسبيحة، وليس هذا لأنبيائه فقط بل: {وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ}

ومن بين تلك الرّسائل كان هنالك رسالةُ عتاب، ولو علمتَ ممّن ذلك العتابُ لانفطر قلبُك، ذلك العتابُ ممّن كان يبكي حبًّا وشوقًا وخوفًا علينا وهو يدعو:

"أمّتي أمّتي".

من رسول الله ﷺ ذلك العتاب يا صديق:

{وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا }

عتابٌ من رسول الله ﷺ فينا، أنّا قد هجرنا كتاب الله وفيه سعادة الدّارين وكلّ الوجود، أنّا ما عدنا نقرأ كلام الله لنا ونفتقده ونشتاقه، فهل لكَ بصفحةٍ من القرآن كلّ يوم، تقرأ فيها كلام الله وتضمّهُ إلى صدركَ؟، ومن الآن لا الغد: {اقرأ باسم ربّكَ الذي خلق}.

واقرأ القرآن وكأنّ اللهَ يُحدّثكَ ويخاطبك، فلعلّك تُثلجُ قلب رسول الله ﷺ بقراءتك، ولعلّ رحمة الله وشربة الحوض والشّفاعة تبلغنا.

نحن ممتنون دائماً لمن يشعر بأنين حروفنا المكتوبة، لمن يسمعُ آهاتنا المختبئة وسط الصمت، وصريخنا المطويّ بين صفحات الشرود، ممتنون لمن يقول لنا: هاتِ دمعتكَ عنكَ أطفئها على خدّي، فهي تُحرق قلبي عندما تنالُ من خدّيك.

-7-

عِمتَ مساءً يا صديق..

تسألني: أن لماذا يؤذينا الناس ونحن لم نؤذِهم قطّ؟! تخبرني أنّك ولو بالنّيّة ما تمنّيت يومًا أذاهم..

لا عليك يا صديقي، فإنّي والله لأبكي لأن يخذل شخصٌ مثلك، وأعرفُ أنّك صاحب نيّةٍ طيبة، لكنّ هؤلاء الناس ستتعلّم منهم درسًا، فأنصِت بقلبك.

الشّخص الّذي تُحسن إليه ومن ثمّ يؤذيكَ

سيعلّمكَ كم أنّ ربَّنا رحيمٌ حليم بنا!

يرزقنا، يُطعمنا، يكرمنا، ويسقينا..

ومن ثمّ نقابله بالمعصية!

فيسوقنا إلى التّوبة بإرادته وهو الغنيّ عنّا

يعفو ويصفح مع أنّه لو شاء لعذّبنا!

فكم هو حليمٌ رحيمٌ كريمٌ..

ما أعظمَ اسمهِ: "العفو".

أمّا نحن فلأجل شخصٍ واحدٍ آذانا ولو بالكلام فقط!
احتقنت أفئدتنا من الحزن والكسر، وما ملكنا أيَّ حلمٍ ومغفرةٍ تجاههُ!

فقل له: شكرًا، لقد عرّفتني مقام ربّي أكثر
عرّفتني أنّي أنا العبدُ المخطئُ المقصّر ما حييت
أزلُّ مرّاتٍ ومرّات.. فيعفو ويصفح
أبتعدُ عنهُ.. فيتودّدُ إليَّ بقربه
قل لهُ: لقد عرّفتني أكثر، كم أنّ اللهَ ودودٌ رحيم
يُعصى فيغفر بكلمة استغفار خرجت من قلبٍ صادق.

الله! كم هي عظيمةٌ قدرةُ عفوِه!
وسبحانه ليسَ كمثله شيء
إذ لا يضرُّ العبدُ بالمعصيةِ إلّا نفسه.

الله كريم..

وددتُ أن أُذكركَ فقط.

-8-

عِمتَ مساءً يا صديق..

لن تستمتع بالحياة إلّا عندما تتخلى عن قراءة الناقد، استبانَ لي ذلك المعنى منذ فترةٍ وجيزةٍ عندما انتهيتُ من كتابي الأوّل: "الحبّ فلسفة قلبية"، وصلتُ حينها لمرحلة التّدقيق اللغوي، وكأيّ كاتبٍ وجدت كثيرًا من الأخطاء وأغلبُها كان ناتجًا عن السّرعة.

بدأتُ بعمليّة القراءة مع التّدقيق، لكنّني وجدتُ عمليّة التّدقيق تلك تسلبُ المتعة، فمع كلّ خطأٍ إملائيٍّ كنتُ أرى نفسي متوقّفًا بغصّةٍ لتصحيحه، وتلك الغصّة كانت تلغي متعتي في القراءة، ولذلك فعندما انتهيتُ من التّدقيق، قرأتُ الكتاب مرّةً أخرى كقارئٍ لا كناقدٍ أو مدقّق، لأجدَ متعة إنجازٍ مختلفة.

ولرُبّما تتساءلُ لِمَ أطرحُ لكَ تِلكَ الفكرة؟!

بالتّأكيد أنّ عملية تدقيق الكتب هي عمليةٌ ضروريّةٌ لا مناص، لكنّ الفكرةَ أعمُّ وأشملُ من ذلك، يا صديقي إنّ من يقرأ حياته كمدقِّقٍ لن يستمتع بها أبدًا، وسترافقه الغصّةُ مع أصغر خطأٍ سيواجهه.

أتعرف لماذا؟!

لأنّ المدقّقين يبحثون عن مثاليّةٍ زائفةٍ غير موجودةٍ على كوكب الأرض، لذلك تجدهم دائمًا مُعكّري المزاج، أدمغتهم اعتادت أن تنظرَ إلى الخطأ قبل الصّواب، ورغم أنّ الصّوابَ غالبًا ما ينضحُ الخطأ ويكادُ يُخفيه ويستره، إلّا أنّهم يصرّون على أن يروا الجانبَ السّلبيّ للقصّة، وإن كانَ هذا التّدقيقُ والتّتبّع لعورات الناس وأخطائهم، فهؤلاء لا شكَّ أنّهم من شرِّ فئات المجتمع، لكنّني أتحدّثُ عن قراءتك لنفسك.

ستسألُني: ما العبرة؟!

سأقول لكَ كما بدأت: تخلَّ عن قراءة النّاقدِ لنفسِك، فنحن بشرٌ خطّاؤون:

- لا تتوقّع نفسكَ مثاليًّا تنتظرُ الكمال لتبدأ، ابدأ بحالتك تلك مع كلِّ أخطائك وعثراتك، فكلّ الّذين وصلوا قد بدؤوا من الصّفر لا العشرة.

- يومٌ كئيبٌ في حياتِك هو صفحةٌ سوداءُ من بين آلافِ الصّفحاتِ البيضاء الّتي مرّتْ، فلا تقف عندها، لو قلبتَ الصّفحةَ على الفور ستظهرُ لك صفحتُك البيضاءُ التّالية، فحياتُنا مختصرةٌ في قوله تعالى: {إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا}.

- الفشلُ في مرحلةٍ ما من حياتِكَ، لا يُلغي كلّ نجاحاتِكَ، وتذكّر أنّهُ ضروريٌّ وما من أحدٍ في هذا الكون إلّا وقد فشلَ وأخفقَ في مرحلةٍ ما حتّى وصل.

فإن أردتَ أن تستمتعَ عِش قارئًا لا ناقدًا، فالنّقدُ والتّدقيقُ يُلغيان متعةَ القراءة.

لقد كانت رحلتهُ متعبةَ للغاية، لكنّهُ أيقنَ أخيرًا أنّ المرء هو من يُعذّب نفسه بنفسه حينما يقرّرُ أن يحمّلها ما لا تطيق، لذلك قرّرَ أخيرًا أن يسلكَ دربَ الرّاحة، ولم يعد يهتمّ كثيرًا للنّتائج، فالسّعادة الرئيسيّة تكمن في الطّريق، أمّا النّتيجة فمتعتها لحظيّة، ومن حقّهِ أن يكمل طريقه بسعادة، وهكذا المرء دائمًا، يذوق في البداية علقم الدّواء ومن ثمّ يُشفى للأبد.

-9-

عِمتَ مساءً يا صديق..

حصلت معي صدفةٌ غريبةٌ، ساقها القدرُ لي لكي أتفكّر بخيرةِ الله وأقداره، انسكبَ بعضُ الماء على أوراقٍ قديمةٍ كنتُ قد احتفظت بها في خزانة الدّراسة الخاصّة بي منذ سنوات، ما دفعني إلى إفراغ الخزانة بالكامل وإعادة ترتيبها من جديد، ولفتَ انتباهي وقتها ظرفٌ ورقيٌّ قديمٌ كنتُ قد نسيتُه منذ زمن، فتحتُ الظّرف المبلّل من غير اكتراثٍ إلى أمره، لأتفاجأ بورقتَين أمضيتُهُما باسمي، وكان النّسيانُ قد غيّبَهُما عن ذاكرتي.

الأولى كانت ورقة المفاضلةِ التي ساقتني إلى كلّيّة الطّبّ، ارتسمَت ابتسامةٌ على وجهي وقتها: أن سبحانَ الله كم مرَّ الوقتُ بسرعةٍ وكأنّي قد أمضيتُها البارحة، تحتها تمامًا ورقةٌ أخرى كانت عاديّةً بالنّسبة لي قبل عامين من الزّمنِ تقريبًا، لكن اليوم هي نقطةُ تحوّلٍ مهمّةٌ في حياتي.

انتابني للحظاتٍ شعورٌ غريبٌ حولها، كان ضجيجًا من الأسئلةِ المزعجةِ يدوي في رأسي:

- أن ماذا لو لم تكن هذه الورقةُ في سجلّ حياتي؟!
- وماذا لو أنّ القدر لم يضع تلك الصّدفة في طريقي أساسًا؟!

كانت تكفي بضعةُ دقائقَ أقلّ أو أكثرَ في ميقاتيّة الصُّدَف، أو أن تنحرفُ زاويةُ نظري بضعةَ ميليات، لكيلا تسجّل ذاكرتي تلك القصّة، ولأمضي بلا تلك الذّكريات، كلّ تلك الأسئلة كانت تصارعُ هدوءَ نفسي فتشعلُ حرقةَ الذّكريات في صدري، وكان هنالكَ جوابٌ واحدٌ يصولُ ويجولُ في نفسي حول كلّ تلك المعاركِ الّتي تدور بين خلايا مخّي:

- لو لم تكن تلك الورقةُ موجودةً، لكانت كلّ تلك الحرقة التي تشغل صدري اليوم مجرّد قصص عابرة، كالّتي يرويها لي النّاس، فأكتبها كعادتي .

لكن للباطل جولةٌ وللحقّ جولات، كان شيئًا من الرّضا والحمد قد وضعه الله في قلبي وقتها، وكأنّ هنالكَ أحدًا ما يقول لي:
- أعد النّظر كرّةً أخرى، فلتنظر الكوبَ كلّه، لا تنظُر إلى النّصف الفارغِ منه فقط، بالتّأكيد أنّك ستجدُ نصف الكوب الممتلئ، ككلّ الأشياءِ في هذه الحياة، هنالك جانبان يجتمعان دائمًا وهما: الخير والشرّ.

وكأنّ خارطة ذاك القدر قد ارتسمت حينها أمام عينيّ، من أوّل لحظةٍ فيه إلى اليوم، وبإجابةٍ مختصرةٍ استطاع بها جانبُ الرّضا أن يدحض كلّ تلك الوساوس:

- لو لم تكن هذه الورقة المؤلمةُ في حياتكَ، لما كان لك الشَّغفُ في أن تسعى لما أعطاكَ الله من نعمٍ اليوم، وفعلاً كان طريقُ التخلُّصِ من الألم مليئًا بالإنجازات التي وفّقني اللهُ لها، ولله الحمد.

وكذلك كلُّ قدرٍ في الحياةِ يا صديقي، فأقدارُنا عبارةٌ عن أوراقٍ مليئةٍ بالحكايا، منها أوراقٌ تحملُ ذكرياتٍ وتجاربَ مؤلمةً كورقتي هذه، لكنّها بحاجةٍ إلى أن تُعيد النّظر فيها وأن تتمعّنَ فيها بشكلٍ جيّد، وبالتّأكيد سوف تُبصرُ بقلبك تدبيرَ الله لكَ، سترى أنّه في كلِّ ما مضى كانَ يكتبُ لكَ الخير، وأنّها كانت مجرّد عسرٍ صغيرٍ أمام عظمةِ اليسرِ الّذي جزاكَ به، وستوقنُ بأنّه لن يكتبَ لكَ إلّا الخير.

وستعرفُ أيضًا أنّ الصعوباتِ الّتي نمرُّ بها اليوم هي عبارةٌ عن ورقةٍ سنفتحُها في المستقبل، فتقرُّ بها أعيننا من خيرةِ اللهِ ولطفهِ وعظمةِ تدبيرهِ لنا.

حينَ تذكّرَ الأمر ذاتهُ ضاقتْ عليهِ الأرضُ بما رحبتْ، وضاقتْ عليهِ نفسه، شعرَ وقتها بأنّ قواهُ قد وهنتْ وأنّ عزمهُ قد خارَ، لم يتمالك نفسهُ حينَها، كانت الدمعاتُ قد ملأت مقلتيه منذرةً بهطولٍ حزنيّ مفاجئ.. وكانتْ عادتهُ أن يهرعَ إلى الصلاة في كل أمرٍ يحزبهُ، متأسيًا في ذلكَ بقدوتهِ صلّى الله عليه وسلّم، حينَ قال "اللهُ أكبر" كانت همومهُ كلّها قد تبددت أمام عظمة ذلك القول، فالله أكبرُ من كل شيءٍ في هذا الكون، جثا بعدها على ركبتيهِ يدعو، وتحولت الدموع حينها من دموع حزنٍ إلى دموع خشيةٍ ويقينٍ بأنّ هذا الهمَّ سوف يزول، كانَ ممزقاً.. تائهاً.. ضائعاً.. سألَ الله الهداية، سألهُ أن يدلهُ على ضالته، أن يخرجهُ من متاهاته وإسرافهِ على نفسه، وهو يدعو: "اللهم يا رب التائهين دُلني، اللهم يا رب الحائرين أرشدني.. اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني.. إلى بعيدٍ يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري.. إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، لكنَّ عافيتك هي أوسع لي".

-10-

عِمتَ مساءً يا صديق..

أتابع التقليب بين أوراق المصنف، فأشعر لوهلة أنّه ليس بالمصنف العادي، فكل ورقة فيه هي تجربة من تجارب حياتي، ورقة تستحق أن أفتحها لأتفكر بها من جديد.

وصحيحٌ أنّ التفكر بالماضي يفتح لنا باب الألم الذي أُغلق منذ زمنٍ بعيد، ويكشفُ لنا الندبات عن جروح القلب القديمة، تلك التي ما إن حضرتنا ذكراها، حضرت معها وخزتها في صفٍ واحد.

لكن على الجانب الآخر هو مريح!

مريح إلى درجة كبيرة، فهو يُعرِّفنا أنّهُ مهما كان حجم الألم كبيرًا، فهو قابلٌ للتّجاوز يومًا ما كالّذي كان قبله، وليس التّجاوز فقط بل لتصنعَ منه الإنجازات حتّى!

وأحيانًا أقول: إنّ اللهَ لا يُنسينا تلك الأخطاء لحكمةٍ منه سبحانه، هيّنٌ عليه هو أن يمسحها من ذاكرتنا إلى الأبد، لكنّه يُريد أن يُذكّرَنا بها دائمًا لكيلا نقعَ بها مرّةً أخرى.

كان تحت الورقتين، ورقةٌ أخرى لا تقلُّ أهميّةً عن أخواتها، كانت ورقة لامتحانٍ نصفيّ في الشّهادة الثّانويّة، ورقةُ امتحانٍ سابقٍ مرَّ كغيرهِ، وهي مجرّد ورقةٍ عاديّةٍ كغيرها، لا تستدعي إلّا توقّف الذّكرى، هكذا كان رأيي فيها للوهلةِ الأولى، لكنّ بابَ التفكّرِ بالّتي قبلها قد فتح عليّ حُبَّ التفكّر ببقيّة الأوراق، لعلّي أجدُ منها حكمةً أخرى، فأنا اليوم أرى أنّ كلّ شيءٍ في حياتنا قدرٌ من أقدار الله يستحقّ التفكّر والتدبّر، وليس كما يسمّيه النّاس صدفةً!

طالعتُ إجاباتي على ورقةِ الامتحان، فتذكّرتُ أنّ التّحضير لتلك الورقة كانَ قد تطلّب منّي الكثير من الوقت سابقًا، لكنّني اليوم أستطيع أن أجيبَ عنها دون دراسةٍ حتّى، لرُبّما الخبرةُ الّتي تراكمت، والمواد الأصعبُ والأشملُ لتلك المعلومات الصّغيرة هي التي جعلتني أجيب عنها دون أيّ مجهود.

وهنا كانت العبرة، في أنّني استطعت أن أجيبَ عن ذلك السّؤال المخيف الّذي يقول لنا دائمًا:

- كيف ستتذكّر وتربط بينَ كلّ تلك المعلوماتِ الكثيفةِ الّتي تدرسُها في الكلّيّة الآن بعد التّخرّج؟!

أحضرَت لي تلك الورقةُ الإجابةَ عن ذلك السّؤال الّذي يستبيحُ أدمغتنا دائمًا:

- هي تمامًا كالحروف الأبجديّة الّتي كُنّا نتلعثمُ لنصنعَ منها كلمةً واحدةً في الابتدائيّة، أمّا اليوم فأستطيعُ أن أصنعَ منها نصًّا مُتقنًا، بل وكتابًا كاملاً إن شئتَ ذلك.

يقول اللهُ سبحانهُ وتعالى في الحديث القدسي: "لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحد فسألوني فأعطيتُ كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر".

أفتعجزهُ مسألتنا؟!

-11-

عِمتَ مساءً يا صديق..

تمرُّ بالإنسان أمورٌ خارجةٌ عن طاقته وإرادته، فيشعرُ لوهلة بالعتمة، شعور أنّ أضواءَ الكوكبِ على كثرتها تأبى أن تعطيه ولو قنديلاً خافتًا يُضيء بهِ قلبه، وتلك هي أقسى أنواع الانطفاء، انطفاء القلب.

وأنتَ مثلي الآن، تتّكئُ برأسكَ على يدكَ، منتظرًا أمرًا ما أن يحدث، وجُلُّ ما تتمنّاهُ هو أن يأتيكَ أحدهم بقبسٍ ليوقدَ النّورَ في قلبك مرةً أخرى.

"ذلك الشّخص لن يأتي".

ستقول لي: ما عهدتُكَ بمثل هذا التّشاؤم قطّ؟!

يا صديقي شأنُكَ الآن كشأن سيّدنا موسى والخضر عليهما السّلام، فأنتَ ما استطعتَ معيَ صبرًا لأكمل لك القصّة، ولمجرّدِ جملةٍ واحدةٍ تشاؤميّةٍ دسستُها في النّصّ، حسبتَ أنّ النصَّ كلّهُ تشاؤميّ.

لنكمل الآن، يا صديقي أشبهُ ما يكونُ حال ذلك الانطفاء بحالِ ذي النون، كانَ سيّدنا يونس عليه السّلام واقعًا في ثلاثِ ظلمات:

ظلمة الحوت، وظلمة البحر، انتهاءً بظلمةِ الليل.

ولا يمكنني تخيّل ضيقٍ أشدَّ من هذا.

عندما استقرَّ في بطن الحوت كانت كلُّ الأبوابِ مسدودة، ولكَ أن تتخيّل نفسك بذات الموقف، كان بابٌ وحيدٌ هو المفتوح: "باب الله"، أسمعهُ اللهُ وقتها تسبيحَ كائناتِ البحر:

{وَإِن مِّن شَيءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ}

فأخذَ حينها يُردّدُ دعاءَه المشهور:

"لا إلهَ إلا أنتَ سبحانكَ إني كُنتُ من الظالمين".

وأنتَ تعرفُ بقيّة القصّة يا صديقي حينَما أنجاه الله، لكنّ ما قد لا تعرفهُ هو أنّ اللهَ قد أنجاه بخبيئةِ عمله الصّالح، كما قال سبحانه وتعالى:

{فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ}

وقد ذكر كلٌّ من الطّبريّ وابن كثير في تفسير هذه الآية:

"إنّ يونسَ النّبي عليه السّلام، حين بدا له أن يدعوَ بهذه الكلمات، وهو في بطن الحوت قال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنتُ من الظّالمين، فأقبلت الدّعوة تحت بالعرش فقالت الملائكة: يا ربّ، صوتٌ ضعيفٌ معروفٌ من بلادٍ غريبةٍ، فقال: أما تعرفون ذاك؟ قالوا: يا ربّ، ومن هو؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الّذي لم يزل يُرفعُ له عملٌ متقبّلٌ ودعوةٌ مستجابة؟ قال: نعم، قالوا: يا ربّ، أولا يُرحمُ بما كان يصنعهُ في الرّخاء، فتنجيه من البلاء؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه في العراء".

كان قبل ذلكَ الضّيق لهُ خبيئةٌ صالحة، كان ذاكرًا للهِ سبحانهُ وتعالى، متعرّفًا إليه في الرّخاء، فكانت النّتيجةُ أن عرفهُ اللهُ في الشّدّة، وكما قال سيّدنا وحبيبنا محمّد رسول الله ﷺ: "تعرّف إلى الله في الرّخاء، يعرفْك في الشّدّة".

العبرةُ يا صديق القلب أنّنا الآن في ظلماتِ الشّدّة، لكنّ الله ما نسينا، ولأنَّه القائل:

{وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}

ولأنّهُ يجزينا على مثقال ذرّةٍ من الخير، سينجينا بخبيئةِ أعمالنا الصّالحة:

- ببسمةٍ عابرةٍ زرعناها على وجهِ حبيب.
- بكسرةِ خبزٍ أزحناها عن الطّريق فحفظنا بها أنعُمَ الله علينا.
- بصدقةٍ ما عرفتها يدنا الشّمال بعد أن أودعَتْها أختُها اليمين.
- بآيةٍ سمعَها شخصٌ منّا.

ولأنّهُ اللهُ الجبّار ولأنّهُ قال في كتابه الكريم الّذي أنزلهُ على قلب سيّد المرسَلين صلّى الله عليه وسلّم:

{وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ}

فاللهمّ لا إله إلّا أنتَ سبحانك إنّا كُنّا من الظّالمين.

كلّما اتجهتْ أبصارنا نحو سمائكَ الواسعة يا الله، صغُرتْ كل هموم الدنيا في أعيننا، واتسعتْ تلكَ الضوائق التي تجتاح صدورنا، وعاد زهرُ اليقين يفوح في قلوبنا، وراحت قلوبنا تدعوك على فطرتها، أن يا الله أنت الرافع، أنت القادر والمجيب الواسع، رفعتَ السماءَ بلا عمد، فلن يعجزكَ أن ترفع عنا هذا الهم بلا سبب.

-12-

عِمتَ مساءً يا صديق..

وددتُ أن أخبرَكَ أمرًا ما بشأنِ أمنيتكَ
تِلكَ الّتي تستعظمها كثيرًا!

على كوكبٍ صغير، في مجرّةٍ تحوي الشّمس والقمر، وتسعة كواكبَ وبلايين النّجوم تقعُ تلك الأمنية، وكلّهم من صُنعِ الله أحسنِ الخالقين.

الله!
كم تبدو الأرضُ صغيرةً أمام كلِّ هذه الكواكب !
لنعُدِ الآن إلى أمنيتك فلقد فرغنا من الحديث عن مجرّةِ درب التّبانة، هل ما زِلتَ تراها كبيرةً ومستحيلة؟!
إذا ما زِلتَ كذلك فارجع إلى أيّ صورةٍ للمجموعة الشّمسيّة، وستعرفُ حينها لِمَ يُقال لا مستحيل على الله:
{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}

وكما قال الشّاعر:

"أيُعجِزُ اللهَ أمرٌ أنت ترقبهُ؟!
ارجع لعقلكَ إنّ اللهَ مقتدرُ

هل تُبصرُ النّاسَ؟ كلّ النّاس أجمعهم..
الله يغرقهم بالخير إن صبروا

ومن دعا راجيًا مولاه في ثقةٍ..
لو أدركته دواعي الكسرِ ينجبرُ!

إنّ الدّعاءَ إلى الرّحمن يلزمهُ..
حسن الظّنون إذا ما رُحتَ تفتقِرُ".

الله قادرٌ على أن يقلبَ دموعكَ تلك إلى دموع فرحٍ في طرفةِ عينٍ واحدة!

ألا ترى كيف يتبدلُ الطقس في طرفةِ عين؟!

ألم تلحظ من قبل الغيوم السوداء الحزينة وهي تتكاثفُ خلال دقائقَ معدودة، لتهطلَ بعدها مطر السماء علينا وكأنّها دموع الفرح؟!

ألم ترقُب من قبل خيوط الشمس الجميلة وهي تتسلل من بين الغيوم، ليتحول الجو الشتوي الماطر إلى ربيعي مشمس؟!

وعزّتهِ إنّه لقادرٌ في طرفةِ عينٍ واحدة.

-13-

عِمتَ مساءً يا صديق..

أرى الهموم أرّقتك كعادتها، فلعلَّك تحملُ أرق المادّةِ المعقّدة الّتي ستتقدّم إليها غدًا، أو أنّ راتبكَ لن يكفي قوتَ عيالك غدًا، أو لعلّكَ تفتقدُ بعض أو كلّ عائلتك، أو أنَّك من الّذين أضرمَتهم سهام الهوى فبرحتهم في أرضِ العشقِ الصّارمة.

لا عليك، أيًّا كُنت فإنَّ ريشتي هي صديقتكَ الّتي ترجو من الله دائمًا أن يخفّف عنك كل ما أهمّكَ، كتبت لك الكثير، ولعلّي أعطيتُك مئاتِ الوعود بأنَّ عوضَ اللهِ آتٍ، وحدثتك مراتٍ ومراتٍ عن قدرة اللهِ وعوضه، لكن هذه المرّة جئت لأطلبَ منك طلبًا مختلفًا قليلاً عمّا سبق.

أريد منك قبل نومك أن تتذكّر: "كل ما حلَّ بك وكيف حُلَّ"، منذ وعيتَ كدر الدنيا إلى لحظةٍ انتهيت فيها من قراءة رسالة ريشتي لك، وسأتركك الآن مع تعجبك من تعويضات الله لك ومن نفسك كيف قاومت.

وتذكر أنّكَ قد خضتَ أكثر من مئة امتحانٍ قبل هذا، ولقد تخطيتها جميعها أيضًا، دعواتي لك، ودعواتك لي.

شروق الشمس هو عبارة عن رسالة أملٍ يومية مفادها أنّ الأحوال لا تدوم، شروق الشمس هو ساعي بريدٍ يأتي في كل يومٍ ليخبرنا بأنّهُ لولا وحشة الغسق، لما أحسسنا بطمأنينته، الشروق هو رسالةٌ للبائسين، تنهيدةُ راحةٍ للمتعبين، ونبضةُ أملٍ لليائسين.

-14-

عِمتَ مساءً يا صديق..

في كلّ مرّةٍ توصدُ فيها أبوابُ الحياة أمام أحلامنا
كلّما قصدنا بابًا من أبواب أمانينا لنقرعهُ
نراهُ يتعسّر ويُصفع في وجهنا..
فنبقى تائهين.. حائرين.. ضائعين..
إلى أن نصل إلى ذروة اليأس، إلى لحظة:
{قَنَطُوا}
إلى لحظةٍ ننادي فيها بنداء السيدة العذراء:
{يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا}
إلى لحظةٍ نشعرُ فيها وكأنّ همَّ الكون بأجمعهِ، أبى إلّا أن يجتمع في صدورنا.

بعد تلك اللحظة، والّتي تكررت في حياتنا مئات المرات، نشعر فجأةً وكأنّ أبوابَ السّماء قد تفتّحت، وأنّ غيثَ الرّحمة قد هطل من غيوم القنوط، ونرى المغيث وقد مسح ببَرْدِ رحمته على قلوبِنا، وأبدلَ مكان الألم حلاوة الفرج.

ونشعر بأنّ أمنيات الموت قد استحالت فجأة لاستغفاراتٍ وخجلٍ من قنوط واهٍ، وأنّ نورَ الأمل قد وُلد بعد ألم المخاض.

فيا ضائقتنا اشتدّي اشتدّي

فللكِ أجلٌ سترحلين بانقضائه..

أتعتقدين أنّنا سنُخدعُ بكِ ككلّ مرّة؟!

{وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ}.

ويحدث أن تهب عليكَ نفحات الشوق، فيُصابُ القلب بالحنين، وتتأججُ فيه الأماني حتى تبلغ القلوب الحناجر، فتخرج من حبالها الصوتية على هيئة صوتٍ يُغني عن جميع حروف الأبجدية: يا رب..

قلوبنا تصير عند الحناجر مع كل شوق، فاللهم ما في القلب.

-15-

عِمتَ مساءً يا صديق..

جعلَ اللهُ الأقدار مكتوبةً عندهُ في اللوح المحفوظ، أمّا فهم تلك الأقدار، فجعله بين أيدينا في المصاحف..

هُنالكَ في المصحف، وضعَ الله فهمًا لكلّ قدر:

مرةً في قصّةِ نبيّ..

وتارةً بخبرٍ عن عبدٍ صالح..

وأخرى بآية عن المصطفى صلّى اللهُ عليهِ وسلّم..

وفي كلّ تلكَ الآيات هُنالكَ خيرٌ يتوارى.

يفقدُ يعقوب ابنهُ الصّغير يوسف، ليصبحَ بعدها بسبب ذلك الفقد عزيزَ مصر.

وتُلقي أمّ موسى ولدها الرّضيع في النّهر، ليُربى في بيتِ فرعون، الطّاغية الّذي كان يقتلُ كلّ أطفال بني إسرائيل، لرؤيةٍ رآها في المنام، وتأويلها: أنّ طفلاً يُولدُ في بني إسرائيل فيكون هلاكهُ على يده، فيُربى موسى بحكمةِ اللهِ في قصره، وتكون نهاية الطّاغية فرعون على يده.

تُثقبُ السّفينة، لكيلا تُسلب، ويُقتلُ الغلامُ، لكيلا يُرهقَ صلاح أبويه، ويُبنى الجدار، ليحفظ اللهُ به مالَ اليتيمين، كخبيئةٍ صالحة لأبٍ صالح قد توفي.

في كلّ آيةٍ هناكَ قدر، وفي كلّ قدرٍ هناك خير، يُرينا اللهُ عِظمَ الجزاء بعِظمِ الابتلاء، فيُعرفنا به، بصفاته ورحماته، لنزداد حبًا له ورضا بأقداره.

فإن أردت فهم تِلكَ الأهوال الّتي أصابتك، فافتحِ المصحف لتُشفى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}

وبلاغة القرآن، هي بلاغة قلوب.

حياتنا أيّها العزيز أشبه ما تكون بالرواية، وإنّ لكل واحدٍ منّا أمنيةً يتمنى أن يراها في الصفحات المقبلة، وكلّنا قد رسمنا أيضاً تلك النهاية السعيدة والتي سنلتقي بها في نهاية المطاف مع أحلامنا، ورجونا من الله أن تكون الخيرة في أمنياتنا، ودعوناهُ أن تُعطَّرَ الخواتيم بعبق المسك، وأن تُملأ الصفحاتُ بمزاج الفرحة والرضا، وكلّنا نعلم أيضاً أنّ الواقع ليس على مقاس الأمنيات أبداً، ولكنّنا ما زلنا كما كنّا، ممتلئين بنفس اليقين من رب السماوات والأرضين، وهو على كل شيءٍ قدير.

فاللهم بلغنا مسكَ الخواتيم ومزاج الفرحة والرضا.

-16-

عِمتَ مساءً يا صديق..

تأسر قلبي سورة آل عمران!

تأسرني الآية التي بُشِّرَ فيها سيدنا زكريّا بابنه يحيى!

تأسر قلبي لحظة نداء الملائكة له!

تخيّل ذلك المشهد الّذي كان يصلّي فيه سيّدنا زكريّا في المحراب ويدعو بدعوته الشّهيرة:

{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ}

فيأتيه حينها النّداء على الفور بصوتٍ مختلفٍ عن كلّ أصوات البشر، هذا النّداء كان بصوتِ الملائكة ولك أن تتخيّل هذا الشّعور:

{فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ}

لحظتَها وقفَ سيّدنا زكريّا مذهولاً من عظمة البشرى!

من هول الموقف!

من هيبة النّداء وسكينتهِ في آنٍ واحد!

وسأل بدهشةٍ وفرحٍ وسرورٍ:

{قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ}

سبحانك ربّي ما أعظمكَ!

كيف سيكون هذا وقد اجتمع المستحيلان؟!

كيف؟!

شيخٌ كبير!

وامرأةٌ عاقرٌ لا تُنجب!

فيأتيه الردّ مرّةً أخرى من الملائكة:

{قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ}

وكأنّهم يقولون له:

اللهُ قادرٌ على كلّ شيء!

حينما يشاءُ الله لا قيمةَ ولا معنى لعراقيل الحياة!

حينما يشاءُ الله لا معنى للظّروف!

حينما يشاءُ الله تخضعُ جميعُ قوى الأرض لمشيئته!

تأسرُ قلبي أيضًا صيغةُ الرّدّ الثّانية في سورة مريم:

{قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا}

اقرأها هذه المرّة وكأنّ البشرى قد صارت لك، واستمع إلى هاتين الطّمأنينتين..

الطّمأنينة الأولى في:

{هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ}

عن ماذا تسأل؟!

هذا أمرٌ هيّنٌ على الله!

هذا أمرٌ بسيطٌ جدًا!

أمرٌ مُعلّقٌ بمشيئة الله سبحانهُ وتعالى بعد الكاف والنون:

{كُن فيكون}!

مِمَّ العجبُ؟ من أيّ شيء؟!

أتعجَبُ من قدرةِ الله وهو خالق كلّ شيء؟!

أتعجَبُ من قدرته وهو القادر على كلّ شيء؟!

والطّمأنينة الثّانية في:

{وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا}

قد خُلقتَ من قبل ولم تكُ شيئًا!

هكذا من نطفةٍ صغيرةٍ لا تُرى بالعين المجرّدة!

من نطفةٍ صغيرةٍ أصبحَتْ عقلاً وقلبًا وعظامًا وأعصابًا وجلدًا!

فكيف تتعجّب بربّك؟!

من أيّ شيءٍ العجبُ وقد خلقك الله وكوّنكَ من نطفةٍ صغيرة؟!

تأسرُ قلبي سورةُ آل عمرانَ ومريم، والقرآنُ كلّه يأسر قلبي!

بلسمٌ للقلبِ وشفاءٌ للرّوح والله.

سبحانَك ربّي ما أعظمك!

والحمدُ لكَ ربّي على كلّ بشرى وضعتَها في كتابك لتهوّن بها علينا ثقلَ الحياة ومصائبَ الدّنيا وتقوّي بها عزائمنا وتثبّتَ بها أقدامَ صبرنا.

وأنتَ أما زلت ترى دعواتِك مستحيلة! قل لي بربّك؟!

أسعدني اليوم كوب شاي!

لا نحتاج دائماً إلى المعجزات لنكون سعداء، فاليوم كان يكفي لأشعة الشمس أن تنعكس على كوب الشاي خاصتي وتلونهُ لي ببريق مبهج، فيسعد قلبي، في الصباح الباكر أيضاً أطربت روحي زقزقة العصافير كما لا تفعل أي موسيقا في هذا الكون، ومن ثم أطربَ قلبي صوت القرآن بدندنة قارئي المفضل: "سعد الغامدي"، سعادتنا الناقصة محتاجةً إلى تلك التفاصيل الصغيرة لتكتمل: ليد حبيب.. لكتف صديق.. لصوت الأم.. لسند الأب.

نحن غارقون في حبِّ التفاصيل، وننتظر تتمتها دائماً ممن نحبّ.

-17-

عِمتَ مساءً يا صديق..

جئتُ لأحكي لك قصةً عن تلِكَ الوحشة التي تطبقُ على أنفاس سعادتك، وذلك الخوف الّذي أخلَّ بطمأنينة جوفك، وتِلك الوساوس الّتي أسقطَتْ روحك في دوّامات القلق واليأس، وكبّلتْ ضحكتك الّتي لطالما اعتدتها بمرآتك، وأجهشتكَ بكاءً لا يكون مثلهُ إلّا على عزيز.

لكنّها أيضًا، أحاطت عينيك بغشاوةٍ أعمتها عن عزمك، جهدك، وطموحك، ذلك الذي حاربت بهِ أصعبَ ظروفك.

جئتكَ اليوم لأكسر قلقك، ولأخبركَ أنّ دواءكَ الّذي تبحث عنه فيك، يا صديقي ألقِ عن عاتقك ذلك اليأس، وتخلّ عن وساوسك قليلاً.

ثمّ انظر، ببصيرة قلبكَ، لا ببصركَ، نظرة يقينٍ بقدرة خالقكَ، سترى أنَّكَ اجتزت الأصعب، ما كان قبل هذا كان مخيفًا أكثر، هشّمكَ أكثر، وخنق روحك وعذّبها..

لكن ماذا كان بعد ذلك؟، ألم تتنفّس روحك بعوضه؟!

ثمّ إنّي أعلمُ أنّكَ تحتاجُ إلى سندٍ يدعمكَ في تِلك المحنة، أعد فتح عيني قلبك مرّةً أخرى، سترى أنّ هنالكَ مَن يدعمكَ في كلّ تفصيلٍ من تفاصيل حياتكَ، مُنذ أن كُنتَ نطفةً في رحم أمّك إلى اليوم.

إنّهُ ملكُ الملوكِ يواسيكَ ويثبّتكَ، إنّهُ اللهُ بعظمتهِ وجبروتهِ وقوّتهِ معكَ، فهل تحتاج إلى أحدٍ غيره؟!

{إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ}.

غيوم قنوطكَ السوداء
هي ذاتها حاملاتُ الغيث
وستمطرُ فرجاً
بإذن الله

-18-

عِمتَ مساءً يا صديق..

إذا ما قُمتَ تدعو الله فلتتدبّر قوله سبحانه وتعالى:

{ٱلَّذِي يرَاكَ حِينَ تَقُومُ}

يراكَ اللهُ ويسمعكَ حينما ترفعُ يديكَ وتبدأ بالدّعاء فتقولُ:

يا ربّ.. يا ربّ..

إلى أن تصل إلى تلك الدّعوة الّتي يتوقّفُ قلبك عندها دائمًا، وهو يتساءل: **"تُرى كيف ستكون؟!"**

ويستغلُّ الشّيطان تلك اللحظةَ ليوسوس لكَ: بأن كيف تدعو بالمستحيل؟!

فتوجّهُ بصركَ إلى السّماء حينها، لتقعَ عينُك على لمعان تلكَ النّجمة الّتي تبعدُ عنكَ ملايين السّنين الضّوئية، فتعودُ لحظتها إلى يقينك الّذي يخبركَ دائمًا: أنّ الّذي رفعَ السّماءَ وخلقَ تلكَ النّجمة الجميلة في ذلك المكان البعيد جدًا من الكون، ثمّ ساقَ لكَ نورها، لن يعجزَه أن يأتيَكَ بدعواتكَ الّتي يخفقُ بها قلبكَ، تلكَ الّتي لا تعدلُ ولا مثقالَ ذرّةٍ صغيرةٍ عنده.

فتكمل الدّعاء بكلّ يقينٍ أن: "يا ربّ.. يا ربّ.. هو عليَّ صعب، لكنّهُ عليكَ هيّن".

أكمل بذاتِ اليقين يا صديق، فاللهُ لا يُضيع إيمانَ عبدٍ كلّما وقعت على مسمعهِ آية:

{أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ}

قال: بلى بلى، اللهُ على كلّ شيءٍ قدير.

يرعانا اللهُ دائماً، فيضعُ جدار منعٍ بيننا وبين كل ما لا نستطيع الحفاظ عليه إن صار بين أيدينا، أمر اللهُ سيدنا الخضر ببناء الجدار ليحفظ به كنز الغلامين، وذلك لحكمةٍ بالغةٍ منهُ حتى يبلغا أشدّهما ويصبحا قادرين على حسن رعايته واستثماره، فلا يضيعاهُ هباءً منثوراً أو يُسرق منهما، وقصة الجدار موجودةٌ داخل كل منعٍ نصادفهُ، ففي تأخير الله تدبيرٌ عظيم لو أبصرنا ما مضى منه، لعلمنا أنّ ما حُرِمنا منهُ عطاء مؤجل ليس إلا، وتلِك الأمنيات التي تترقبها قلوبنا بلهفة والتي مُنعت عنا اليوم، ما نسيها الله، لكنّهُ يخبئها إلى قدر هو أعلم به.

-19-

عِمتَ مساءً يا صديق..

تسألني: لِمَ أنتَ متفائلٌ دومًا؟!

فأجيبك: أمّا من الواقع فلا..

وإذا دخلت إلى قلبي فستحكي لك نبضاتهُ ألف حكاية وجع، ستُخبِركَ أنّني لستُ من أولئك الّذين لا يقرعُ الحزن بابهم، ولربّما ستعرف أيضًا، أنّه من سكان قلبي لا من زواره.

لكنّني أحاول ما استطعت أن ألزمَ وصيّة حبيبِنا ورسولنا الكريم محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم:

"بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا".

فهل لكَ أن تكون مُبشِّرًا لا مُنفِّرًا؟!

حُبًّا بمن وصّى بالبشرى، وصدّقني؛ الجزاءُ من جنس العمل، سيُبشِّرُكَ الله بكلّ خيرٍ بعدها!

ونسيتُ أن أخبرك؛

أنا متفائلٌ نعم، لكن من الله وحده.

يا الله..

ذلك النداء المُريح الذي يكشف عن كل همومنا لله -سبحانه وتعالى- بلغة الحب، النداء الذي نوقن بأنّ صداه يُسمع الآن في السماء، وبأنّ إجابته ستشرقُ على هيئة نورٍ مع بزوغ الفجر، سيأتي نور كل تلك العتمات، لأنّه الله نور السماوات والأرض ومن فيهن، ونور القلب والروح.

-20-

عِمتَ مساءً يا صديق..

تقول لي : كيف يبلغُ المرءُ حلمه وهو عاجزٌ خاسر؟!

يعتصرُ فؤاد المرءِ ألمًا على أشياءَ فاتته، فيمرُّ عليها مرورَ الأسى والحسرة، يرمقُ خساراته بعينيهِ بنظرة عجزٍ وألم، فكلّما حاول أن يقاوم انكساره وحزنه يغلبهُ التفاتهُ، يتقلّبُ في كلّ ليلةٍ على جمرِ القلق، لتُلاحقه أشباحُ تلكَ الخسارات حتّى في منامه.

يا صديقي ومن منّا سلِمَ من تلكَ الجمرات؟.. لكن لا عليكَ..

فمن خلقَ الدّاء حاشاهُ أن يتركنا تائهين بلا دواء، وأنا أوقنُ بأنّ القرآن شفاءٌ لكلّ داء، كيف لا وهو كلامُ اللهِ يوجّهُ لنا؟!

يقولُ اللهُ سبحانهُ وتعالى في كتابه الكريم:

{لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ}

يُريد اللهُ مِنّا بتلك الآية ألَّا نُكثرَ الالتفات، ألّا نُفسحَ مكانًا للأسى والحسرة في قلوبنا، ألّا نوقفَ حياتَنا عند كلِّ عثرة.

والسؤالُ لِمَ؟!

الجوابُ في الآية الّتي تسبقها:

{مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ}

قبل أن يخلقَ اللهُ الكونَ بخمسين ألفِ سنةٍ قدّر لنا مقاديرنا، وجعلها عندَهُ في اللوحِ المحفوظ، تلك المصيبةُ الّتي كسرت قلوبَنا قُدِّرت لنا من قبلِ أن نولدَ حتّى، لحكمةٍ بالغةٍ منه سبحانهُ، أرادها في ذلك الفقد، فالقرآن يقولُ لكَ: لا تأسَ ولا تتندّم، لأنَّكَ ولو حرصتَ كلَّ الحرص ما استطعتَ دفعها عنك، ولأنّكَ لو أطلْت حزنك ما استطعْت ردَّ ما راح إليك.

يريدُ القرآن منكَ أن تعملَ على واقعكَ، أن تستغلَّ المُتاح، لا أن تبكي على ما راح، ولا شيء يستحقُّ النّدمَ والبكاءَ في هذه الحياة إلّا خطايا المرءِ وذنوبُه وتقصيرُه تجاه الله سبحانه وتعالى، أمّا الدّنيا: {كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٍ}.

تقول لي: كيفَ أبلغُ هذا؟!

علّق قلبكَ بالله يا صديقُ وسلّم الأمر له، وكلّما عكّرت خساراتُكَ صفوةَ مزاجكَ، تذكّر قول الحبيب المصطفى صلّى اللهُ عليه وسلّم، وكأنّهُ يمسحُ على صدرك ويخاطبُك: "يا بُنَيَّ، إنَّك لن تَجِدَ طَعمَ حقيقةِ الإيمانِ حتّى تعلَمَ أنَّ ما أصابَك لم يكُنْ لِيُخْطِئَك، وما أخطَأَك لم يكُنْ لِيُصيبَك".

وداوِ قلبك أيضًا بقولهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّم: "احرص على ما ينفعُك، واستعِن بالله ولا تعجز، وإنْ أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أنِّي فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإنّ "لو" تفتحُ عمل الشّيطان".

وسلْ نفسك هل يُعيد الأسى ما مضى؟!

أم أنّ ابتسامة السّعي هي من ستأتي بما حلمنا به؟!

وعن هل يبلغ المرءُ مع هذا حلمه:

{وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ}

فسوفَ يُرى لا محالة.

لماذا اليأس ولنا ربٌّ قادرٌ على أن يغير حالنا في طرفة عين؟!

وإني والله لَتمر عليّ أيامٌ أكادُ أموتُ فيها من شدة اليأس، وكلّما وصلتُ فيها إلى الذروة، هطل غيث الرحمة فروى قلبي بعد الظمأ، وأسعد روحي بعد التلف، وجبر خاطري بعد الكسر، انظر إلى قول الله تعالى: {كن فيكون}، كن تتبعها يكون بطرفة عين، فقم وابتسم واقرأ صفحةً من القرآن وجدد إيمانك ب: "لا إله إلا الله"، واعلم أنّ كل هذا الكون زائل، ولا تنتظر شيئاً لتكون سعيداً، فإنّ أجمل الأرزاق هي تلك التي تأتينا من دون انتظار: {ويرزقه من حيث لا يحتسب}.

-21-

عِمتَ مساءً يا صديق..

هنالكَ اقتباسٌ مشهورٌ يحزُّ في نفسي دائمًا:
"العالَم لا يراك إلّا في مشهدكَ الأخير".

وهكذا هم البشر ليسَ كلّهم ممّن يُبطنُ لك الخير، ولو بحسنِ الظن حتّى، فإن فشلت قالوا:
مهملٌ وقليلُ حيلة، ومن ثمّ ينهشون لحمك بنميمتهم وشماتتهم.
وإن نجحت قالوا:
ما أفضل حظّه، وكأنّ ذلك الشّخص لم يذق طعم المرّ أبدًا، ومن ثمَّ يبغضونكَ بحسدهم.

لا عليكَ يا صديقي، ولا تدع حكم البشر يؤذيك أكثر، صحيحٌ هذا القول، فهم بالنهاية حقًا لا يرون إلا المشهد الأخير..
لكنّني دائمًا ما أفرُّ من كلام البشر، إلى كلام ربِّ البشر، وليسَ بعد كلامهِ كلام، ألم أقل لكَ سابقًا أنّ القرآنَ دواءٌ لكل داء؟!

يقولُ اللهُ سبحانهُ وتعالى في كتابه العظيم:

{وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا}

هُم لا يرون المشهد بكامله صحيح، لكنَّ اللهَ رآه:

- رأى اللهُ تعبكَ وسهركَ وجهدك.

- رأى عدد حباتِ المسكّن وعلب الدّواء الّتي تجرّعتَها لتمنح نفسكَ فرصةَ الثّبات.

- رأى اللهُ أعصابكَ الّتي مزّقها التّوتّر وقلبكَ الّذي هشّمهُ القلق، وأنت ترقبُ انهيارك أمام عينيكَ.

- رأى اللهُ وأحصى دمعاتِك الّتي أغرقَت كلّاً من مصلّاكَ ووسادتك في جوفِ الليل، وأنت تدعوه بالنّجاة.

لقد رأى كلَّ المشهد وأثابكَ عليهِ، لا كما فعل النّاس، وكفى بالله شهيدًا.

إنّ أجمل الأرزاق هي تلك التي تسبق تدبير عقولنا، تلك الأرزاق التي تأتي على هيئة هدية أو مفاجأة، التي يختارها الله لنا قبل أن نختارها، التي لا نفكر بها لاستحالتها في عقولنا، التي لا نعرف كيف ومن أين أتت، تلك التي تشعر وكأنّها هدية ما قد هبطت من السماء للتو، كدعوة، أو رزق ما، أو شخص، أو موقف عابر أو كلمة لطيفة ترسم البسمة على قلوبنا: {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}.

-22-

عِمتَ مساءً يا صديق..

دعني الليلة أهمسُ لكَ ببعض الكلام، علَّ كلماتي تُطفئ نار صدرك، علمتُ مؤخّرًا بأنَّ الأيّام قد عصفتْ بِك ومزّقت شِراع عزمك، وأثقلتْ سيرَ سفينة دربك، وإنّي لأشهدُ أنّ بحارًا مُرَّا مثلكَ، قد شَهِد من أعاصير الحياة ما جعلتهُ يألفها في دربه، وإنّ شِراعَ سفينتكَ الممزَّق، ومجاديف سهركَ المُتعبة، لتشهد على ذلك كلّه.

فأنصت لقلبي قليلاً أيّها العزيز:

إنّ إبحارنا في هذا الكون محكومٌ بالسّعي، فالله يُريدُ أن يراك وأنتَ تقاوِم في هذا الطّريق، حتّى إذا وصلتَ إلى وجهتكَ أعطاك أجرك، سواءٌ وصلتَ بأبهى حلّةٍ أو وصلتَ ممزّقًا، فتفاصيلُ الوصول أبلغُ عند الله منه.

واعلم أنّ اللهَ يسجّل خطوكَ لا نتيجتك، واعلم يا صديقي أنّ هنالك على السّفينة ركّابٌ حياتُهم أمانةٌ بيدكَ!

فإذا استسلم قبطانُ السّفينة، فمن يقودُ الرّحلة إذًا؟!

واللهُ سبحانهُ وتعالى يقول في كتابه الكريم:

{إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ}

فالأجرُ بما تسعى لا بما تحصدُ يا صديقي، فلا تكترث لنتائجَ جاءت على غير ما تشتهي.

أنتَ تستحقُ أن يبذل لكَ الحبّ بنفس المقدار الّذي أعطيته..

أنتَ شخصٌ جميلٌ للغاية..

ليس مهمًا كيف يراكَ الناس..

المهمّ أنّكَ النّجمة المضيئة لحياة من تحبّهم..

فنحن نرى أنفسنا بأعينهم، لا بأعين النّاس.

-23-

عِمتَ مساءً يا صديق..

تهوي بِنا الحياةُ بكدرها وظروفها، وتُصيّرُنا إلى ما لا نحبّ، فتُلقي بِنا في غيابةِ الجبّ وسط قعرِ الهمومِ والمصائب، لتضيقَ بِنا الأرضُ بما رحبت، وتختنقَ صدورنا وكأنّنا بالكادِ نتنفسُ من خرمِ إبرة.

وكعادتنا نبدأُ بالبحثِ عن مخرج، نجهشُ بالبكاء ثُمَّ تعلو بِنا الأصوات، نستغيث، تسيلُ مِنا الدّموع، لكن بِلا جدوى فلا أحد هُنا لينتشلنا، لنهدأُ بعدها ونرفعَ رأسنا إلى السّماء، فيسحرنا وسعها وكأنّنا ننظرُ إليها نظرة الحبِّ الأولى، لنُهمهمَ بلهفة المستغيث:
"يا ربّ.. يا ربّ.. أدركنا".

نُطفئُ حرَّ الدّموع بماءِ الوضوء، ومن ثمّ نهرعُ إلى من نلجأ منهُ إليه في كلّ واقعة، إلى: "الله"، مُلقينَ ب: "اللهُ أكبر" الدّنيا وراءَ ظهورِنا، وقد فرغنا منها ومن أسبابها، لاجئينَ إلى ربِّ الأسباب.

نقفُ بين يدي ملكِ الملوك على بابه، على بابِ من يملكُ الكونَ وأسبابه، ثم نأخذُ لنُفضي بكلّ ما أتعبنا بين يديهِ في ثلث الليل الأخير، لنقولَ لهُ:

يا ربّ أنتَ الآن تُنادي:

"هلْ مِن سائِلٍ يُعْطَى؟

هلْ مِن داعٍ يُسْتَجابُ له؟

هلْ مِن مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ له؟"

ونحنُ كلّ ذلك:

فقيرون إليكَ..

محتاجون لكَ..

مذنبون ومقصّرون بحقّكَ..

إليكَ:

عائدون، تائبون، حامدون..

وأنتَ أكرمُ الأكرمين.

هُنا مُتّسعُنا الوحيدُ يا صديقي، فلُذ منهُ إليه:

{وَعَلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ}.

أريدكَ أن توقنَ دائمًا أنّ الله سيعوضك، أريدكَ أن تستحضر في قلبكَ لحظة الجبر بعد الصبر، واليسر بعد العسر، والشفاء بعد البلاء، أريدُ أن أخبركَ أنّهُ في يومٍ ليس ببعيد سوف تنجلي هذه الهموم، وتزول جميع الغموم، وستتحول كل دموع بكائكَ إلى فرح، ويستحيلُ كل ألم قلبكَ إلى لذة، حينها سيُقال لك كما قيلَ لسيدنا أيوب عليه السلام: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾، أريدكَ يا صديقي أن تعيدَ قراءة الآية وتستشعرَ برودتها وسكينتها في قلبك، أريدكَ أن تتخيل برودة ذلك العوض الذي سيُطفئ نار صدرك، وعذوبة ذلك الحلم الذي سيروي تشققات قلبك، وآمين آمين لدعوات قلبك.

-24-

عمِتَ مساءً يا صديق..

عندما يخلو المكانُ منكَ يكون فارغًا رغم ازدحامه، لا شغف فيه ولا روح!

وكيف يكون ذلك وأنفاسُك غائبةٌ عنه؟!

كلُّ مكانٍ لا تطؤهُ قدمُك فارغ، وكلُّ أرضٍ لست بجواري فيها قاحلة!

ولكن لو علمتَ أنّ غيابَكَ سيُسلِّمُ قلبي لنارِ القلق، الّتي تأكلُ ضحكتي كما تأكلُ النّارُ الحطب، لما طاوعك قلبُك أن تفعل!.

تُرى ماذا حلَّ بِكَ يا صديقي؟!

كلماتٌ.. كلماتٌ.. كلمات..

ما أبشعَني الآن وأنا أقفُ مكتوفَ اليدين أمسحُ دمعتكَ بكلماتي فقط!

صدّقني لو استطعتُ لمزّقتُ تِلكَ الأوراق، وجئتُ إليكَ لأضمّكَ إلى صدري، وأقول لك:

- إن كانَ ذلك الضّعف لهمٍّ قد أصابك، فهاتِ ذاك الهمّ، أنا أحملهُ عنكَ في صدري!

وإن لم يُفلح هذا، فسأشقُّ لك صدري لأهديكَ قلبي بلا أيّ تردد!

سيُجري لي الأطباء حينها اختبار معقّد التّوافق النّسيجيّ الأعظميّ، الّذي درسناه في كلّية الطّبِّ قبل أن يعطوكَ إيّاه، تخيّل يقولون: أنّهم يريدون التّأكدَ من أنّ أنسجتنا متطابقة!

سأصرخُ في وجههم وقتها بِلا تردّد:

- إيّاكم لا تفعلوا، فقلوبُ الأحبّةِ تعرفُ بعضها؛ وقلبي سيعرفكَ على الفور، أنا متأكّد!

وإن قلت: "بعيدٌ الشَّرُّ عنك!"

فسأقول لك: أيُّ خيرٍ هذا ودمعكَ يجري على قلبي قبل أن يسقط على خدّكَ؟!

دمعتُك بكاءٌ لقلبي، فلا تبكِ أرجوك!

شيءٌ واحد فقط يُزيحُ تلك الجمرات عن قلبي، وهو أنّ اللهَ معكَ دائمًا، ويعطيني هذا اليقينُ الرّاحةَ، فالله أرحمُ بِكَ من الأمّ بولدها!

قرأتُ منذ أيّام عبارةً في كتابِ كليلة ودمنة قد تُريحكَ قليلاً: "وقد تنكسفُ الشّمسُ والقمرُ إذا ما قُضيَ عليهما ذلك!" بعضُ الأقدار تأتي صعبةً، لكن إن كانت من الله فهي الخيرُ حتمًا، فإن كانت دمعتُكَ لقدرٍ قد فاقَ صبركَ، فامسحها الآن وأنتَ تقرأ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهو يقول:

{إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ}

فكلُّ مَن في الأرضِ مُصاب، والجنَّةُ سلعةٌ غالية.

سأحاولُ ما بوسعي أن أفعل لأجلك دائمًا، سأعرجُ بِكَ بدعوةٍ إلى الله في عتمِ الليل، وسأسألهُ ألّا يُريني بِك سوءًا ما حييت، فاكفف عنكَ هذا الدّمع، واضحك كعادتِك كي أشعرَ أنّ الكونَ برمّتهِ قد أضاءَ لي، واقرأ كلام الله، فهنالك الرّاحةُ الّتي تُغني عن كلّ قولٍ سواه.

إليكَ وحدكَ دونَ سبعةِ مليارات شخصٍ في هذا الكون.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾

يُجزى المرءُ على سعيه
فلا تبتئس إن قلّت النتائج.

-25-

عِمتَ مساءً يا صديق..

أشعر برغبةٍ شديدةٍ بالهروب ممّا أنا فيه، بالطّيران والتّحليق بعيدًا عن تلك الدُّنيا..

أشعر برغبةٍ شديدةٍ باعتزال كلِّ ما يؤذيني!

وهذه الدُّنيا كلّها باتت تؤذيني!

فتسألُني بدمعةِ خشيةٍ وحبٍّ في عينيك:

- ويحك هل جننت؟! وهل تتركُني هنا لوحدي؟!

أنا لا أتحدّث عن الموت يا صديق، فالأعمارُ بيد الله، وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت!

لكنّني أريد التّحليق بروحي إلى العالم العلويّ، أريدُ أن أُسلِّمَ قلبي لله ليغسلهُ من كلِّ الذّنوب والخطايا، اشتقتُ بشدّةٍ للذّة القُرب، لسجدةٍ في عتم السّحَر، لدمعةِ شوقٍ تسيل على خديّ!

وهذه الدّنيا كامرأةِ العزيزِ يا صديقي، تحاولُ دائمًا أن تراودك عن نفسك، تتبرّجُ لكَ بمغرياتها وفتنها، في محاولةٍ لها لأن تحيدكَ عن الطّريق، حتّى إذا وقعْتَ في الذّنب، بدأتَ تفقد لذّة طريق الاستقامة.

يا صديقي إنّ أكثر ما يُحزنُ المؤمن، هو فواتهُ لذّة الطّاعات بذنوبه، يا صديقي من سلكَ طريقَ الله، هو من أشدّ النّاس حزنًا وحسرةً كلّما ابتعدَ عنه، وأنا أشعرُ أنّني أسرفتُ على قلبي بمتعلّقات الدّنيا، لذا قرّرتُ أن أقدّمها كذبيحةٍ لله، فلعلَّ قلبي يرتاح!

وأنا متيقّنٌ أنّ مَن صدق الله سيصدقه، سيفديه بذبحٍ عظيم، ويناديه كما نادى سيّدَنا إبراهيم: {قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ}

ألقِ أمنياتِك الّتي تعلّق بها قلبُك لله، وإن نادتك:

لمن تتركُني، هل ستتخلّى عنّي بكلِّ تلك السُّهولة؟!

فأجبها فقط: لله.

سترتاحُ حينها وتقول لك كما قالت سيّدتنا هاجر لسيّدنا إبراهيم عليه السّلام عندما تركها هي وصغيره إسماعيل:

"آللَّهُ الذي أَمَرَكَ بهذا؟!

فقالَ نَعَمْ..

فقالَتْ: إذَنْ لا يُضَيِّعُنَا".

التَّعلُّق بغير الله مرٌّ يا صديق، وبعض التّعلُقات لا يشفيها إلّا الإفلات.

تكون..

- لا تكون!

- تكون..

- لا تكون!

- هل سيتحقق حلمي يا تُرى؟!

- وعلى فرض أنّهُ لم يتحقق! كيفَ سيحتملُ قلبي خيبة الانتظار حينها؟!

هذه هي جلسةُ الأفكار السوداوية التي تعقدها خلايا أدمغتنا دائماً، والتي يوسوس لنا الشيطان بها في كل ساعة، أمّا الله سبحانهُ وتعالى فيقول: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، ففي الوقت الذي نعدُّ فيه الحسابات والتوقعات لأمورٍ لم يحن وقتها بعد، يُدبّرِ اللهُ لنا كل تلك الأمور من السماء، لتهطل على الأرض بأجمل هيئة!

-26-

عمتَ مساءً يا صديق..

أشعر أنّي أقفُ على حافّة الانهيار، أشعر أنّي على شفا حفرةٍ من السّقوط، أحمل أثقالاً وأعباءَ كثيرةً توشكُ أن تكسر ظهري..

وأنا بضعفي.. ببشريّتي.. بسقمي..

بكلمةٍ واحدة أجيبك: لم أعد أحتمل!

أريد أن أبكي.. أبكي فقط لا غير!

وأنتَ فقط تصرخُ في وجهي:

أكمل..

أنت قويّ!

أنت تستطيع!

وبعبارةٍ أخرى تقول لي:

"إذا أنت عم تحكي هيك!"

اسمح لي هذه المرّة، لقد حانَ دوري في الصّراخ:

كفى! كفى! كفى!

لِمَ تصرُّ دائمًا على نعتي بالقويّ؟!

لقد خُلقتُ ضعيفًا!

فلِمَ تريد أن تجرّدَني من بشريّتي؟!

دعني أحزن، دعني أبكي..

دعني أنا وألمي نشتعل، اسمح لهذا الألم أن يحرقني!

لا أحتاج إلى عبارات كتب التّنمية، تلك الّتي لا أشتريها بنصف ليرة، لا أحتاج إلى أن تخبرني بأنّني أستطيع!

لقد أبكتك كلماتي أليس كذلك؟!

معاذ الله أنّي قصدتُ أن أبكيك، فأنتَ قلبي!

ومعاذ الله أنّي كُنت أهاجمك أو أنّي منزعجٌ منك، لكنّني أريدك أن تبكي لأجلي، أريدك أن تضمّني بقلبك قبل ذراعيك، أريد أن أسمع نبضاتك لأطمئن، أريد أن أتحسّس أنّك تشعرُ بي!

فأنا مجرَّدُ إنسانٍ ضعيف، لا أملك أيّ قوًى خارقةٍ لمواجهة هذا الكوكب، لكنّني أملكك أنت!

أملك الكثير:

أملك حضنك، كتفك، ضحكتك الّتي تعيد لي الحياة.

تكادُ تقول لي: ما بك، لم أفهم أيَّ شيءٍ ممّا تقوله؟!

ليس شرطًا أن تفهم يا صديق..

المهم الآن أنّك تشعرُ بي!

احتضنّي فقط، لأنّني لا أريدُ أيّ كلمات!

أريدُ حضنك فقط، أريدُ أن تشعرَ بي.

لا يحتاج النّاس في أوقات الشّدّة إلى العبارات التّحفيزيّة، هم يحتاجون لمَن يشعرُ بهم، يحتاجون لمَن يعرفُ أنّهم ليسوا بخير، يحتاجون لشخصٍ واحدٍ بعينه، دون الكون بأكمله!.

لا يحتاج الناس في أوقات الشدة إلى شيءٍ ما بقدر حاجتهم لمن يشعر بهم، لمن يعرف أنّهم ليسوا بخير، لمن يطمئنهم ويربت على قلوبهم، ولمن يخبرهم بحلاوة وجودهم بيننا، لا شيء في هذه الدنيا يعادل قيمة الكلمة الطيبة، وفي الحديث عن الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وسلّم: "والكلمة الطيبة صدقة"، فتصدقوا عن قلوبكم بابتسامة وضحكة وكلمة طيبة.

-27-

عِمتَ مساءً يا صديق..

هنالكَ شعرةٌ رفيعةٌ بين مفهوم الثّقة بالنّفس ومفهوم الغرور أو العجب، ولتعلمْ أنّ الثْقة بالنّفس هي أحدُ الأركانِ الأساسيّة للنّجاح، فإن كنتَ أنتَ لا تؤمنُ بنفسك ولا تثقُ بما تقدمهُ، فلا تنتظر من النّاس أن يثقوا بكَ.

والنّظر إلى سِيَر النّاجحين والاقتداءُ بهم هو من الأمور المحفّزة على النّجاح، لكنّ البعضَ قد يخطئُ بنظرتهِ لهم، فيُقارن ما هم وصلوا إليه مع ما هو عليه الآن، فيصاب بالإحباط ويفقد ثقته بنفسه.

وهذه مقارنةٌ خاطئةٌ لا تصلحُ البتّة، فهم كانوا مثلك، وقد بدؤوا من الصّفر أيضًا، ولم يكن لدى جميعهم عقولٌ خارقةٌ كما أنت تعتقد، إنّما هو الإخلاصُ والاستمرارُ كما علّمَنا رسولُ الله ﷺ حينَ قال: "أحبّ الأعمال إلى الله تعالى، أدومُها وإن قلّ".

فإن أردْتَ أن تستفيد من سير النّاجحين، فابدأ القراءة من الصّفحة الأولى ولا تستعجل الخاتمة فورًا، فتلك القراءةُ خاطئةٌ.

كل تلك الأمنيات التي وقع قلبنا في حبّها، والأحلام التي توجّهَ سعينا نحوها، واقعة في مسافة ما، في مسافة تنتظرُ أمر الله، مسافة معلّقة بمشيئتهِ بعدَ "الكاف" و"النون"، فاللهم أمر كُن لأمانينا فتكون: {كُن فيَكونُ}.

-28-

عِمتَ مساءً يا صديق..

يعزُّ عليَّ أن أراكَ مكسورًا، فلا أعطيكَ كتفي لتتّكئ عليه، ويعزُّ على قلبي أن يراكَ مهمومًا، فلا يعطيكَ نبضاتِه لتطمئنّ به.

تركتكَ وقتها وقلبي كلّهُ عليكَ، على ما آل إليه حالك، وعلى ما وصلَ إليه حزنك، ومعاذَ الله أنّي كنتُ أبكي على حالك شفقةً، فأنا لستُ من أولئك الّذين يواسونَ ويحبّونَ لشفقة، أنا أبكي عليكَ لأنّي أحبّكَ فقط، والمحبّ لا يحتمل سوءًا يصيبُ محبوبه.

أرسلتُ باسمك إلى السّماء حينها، وبكلمةٍ واحدةٍ فقط لم يعترضها أيُّ حاجب، قلت: "يا ربّ.. أستودعُكَ إيّاه فاحفظ قلبه"، وعندما كنتُ أفكّر بك، فتحتُ مصحفي لأقرأ فيه، وإذ بي أقفُ عند آيةٍ فيها رسالة سماويّة: {قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ}.

فحينَما جاءت الملائكةُ لتبشّرَ سيّدنا إبراهيمَ بمولدِ ابنِه إسحاق عليهما السّلام، نقلَت إليه خبرًا آخر وهو هلاكُ قرية سيّدِنا لوط عليه السّلام لكثرة الفساد فيها، وكانت هناكَ قرابةٌ تربطُ بين سيّدنا إبراهيم وسيّدنا لوط.

وكان سيّدنا إبراهيم يحبُّ سيّدنا لوط، إذ إنّهُ ابنُ أخيه، فلمّا سمعَ الخبرَ حزِن وخاف عليه أن يهلكَ معهم، فقال بخوفٍ عليه: {إِنَّ فِيهَا لُوطًا}.

كانَ ذلك الخوف نابعًا من حبّهِ له، كان خوفًا أن يصيبَ سيّدنا لوطًا أيّ مكروه، إلّا أنّ اللهَ لم يتركهُ خائفًا، ربّتَ على قلبه، وأمّنَ خوفه، وأخبرهُ بأنّهُ أعلم وأرحم به منه، فقالت لهُ الملائكة تطمئنهُ حينها:
{قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ}

{نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ}
ربّتَ اللهُ على قلبي بها يا صديقي، طمأنني ككُلِّ مرَّةٍ أنّهُ أعلمُ بك، أنّهُ أرحم بكَ من أمّكَ، طمأنني برسالةٍ سماويّةٍ من القرآن أنّهُ معك، وأنّ عليَّ أن أضع الخوفَ والقلق جانبًا عندما أضعكَ بين ودائعهِ وأمضي.

وتذكّر دائمًا أنّي هنا إلى جانبك، بصوتي وحروفي، وقلبي قبل كلٍّ منهما.

لقد فطرَ الانتظار قلوبنا يا الله، نفتقد شيئًا نسألك إيّاهُ في كل حين، فترانا نقرعُ أبواب الحياة باحثين عنه، نسأل كل من نصادفه على اختلاف صيغة السؤال: "متى يأتي؟ وكيف؟ وهل تملك لنا أيّ حل؟!"، وكلّهم على اختلاف معرفتهم إجابتهم واحدة: "اللهُ أعلم متى يأتي الفرج"، فنرجعُ إلى بابكَ ككل مرة، عارفينَ أنّك الوحيد الذي تملكُ الإجابة، لأنّكَ أنت الأعلم الأكرم، فنُناديك: "أن يا ربّ نفتقدُ قطعة من قلبنا، تِلكَ التي سألك إيّاها سيدنا إبراهيم حينَما طلب منك أن تُريَهُ كيف تُحيي الموتى، فقُلتَ لهُ حينها: {أَوَلَمْ تُؤْمِن}، فقال: {بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}، قطعة الطمأنينة؛ هي تلك القطعة التي بفقدانها تُستنزفُ قلوبنا يا الله، فنسألك فرجك وطمأنينتك لتحيا قلوبنا، فنحن أيضاً مؤمنون بكَ، ولكنّنا ننتظر نور الإجابة لتطمئن قلوبنا بأنّكَ تسمعنا وبأنّكَ راضٍ عنا، ونحنُ عندما تستجيب لنا، نفرحُ بسماعكَ لدعائنا أضعاف ما نفرحُ بقضاء حوائجنا".

-29-

عِمتَ مساءً يا صديق..

ما من إنسانٍ في هذه الحياة إلّا وخاضَ مدرسة الابتلاء، والابتلاءُ مدرسةٌ عظيمةٌ من مدارسِ الحياة، ففيها يتعلّمُ الإنسانُ الصّبر ويُكشفُ معدنهُ، وفيها ينالُ ما ينالُ من نعيم الجنّة، وفيها أيضًا يعرف ضعفه، فيلجأ إلى خالقه ليكشفَ عنهُ ما نزلَ به، وحضرني للتّوّ قول الحسن البصريّ رحمهُ الله عن هذه المدرسة: "كانوا يتساوون في وقت النّعم، فإذا نزل البلاء تباينوا".

وما دفعني أيضًا لأكتبَ لكَ هذا النّصّ، هو تدبّرٌ جميلٌ في قول الله تبارك وتعالى:

{وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً ثُمَّ نَزَعۡنَـٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَـٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ}

فمن طبيعة النّفسِ البشريّة أنّها أمّارةٌ بالسّوء، فترانا حينَما ينزل فينا الابتلاء، نيأسُ ونقنط وننسى كلّ النّعم الّتي نملكُها، ويأتي الشّيطان أيضًا والعياذُ بالله منه ليعينَ أنفسَنا علينا، لدرجة أنّهُ قد يُنسينا كلّ تعويضات الله لنا، وكأنّنا ما ذقنا نعماءَ الفرجِ قطُّ.

لذلكَ فمن حقّ نفسِكَ عليكَ ومن حقِّ الله عليكَ، وممّا يُعينكَ على ساعات الابتلاء، أن تتذكّر كل ما حَلَّ بكَ وكيفَ حُلَّ:

فكم من صعبٍ هانَ.. والله معك..

وكم من صخرٍ لانَ.. والله معك..

وكم من ضيقٍ اتّسعَ.. والله معك..

وكم من حلمٍ قد تحقّق.. والله معك..

وكم من النّعم الّتي بينَ يديكَ اليوم.. كانت حلمًا لك بالأمس.

وبقدرة الله وبإذنه أبشر:

فإنّ ضيقَ اليوم.. هو متّسع الغدِ..

ومستحيلُ اليوم.. هو كائنٌ الغدَ لا محالة.

فاصبر وصابر:

{إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ كَبِيرٌ}.

ومن لطائف السيرة أنّهُ دخل سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- ذات مرة على النبي ﷺ وسيدنا أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- فوجدهما يبكيان، فقال: قل لي ما يبكيكَ أنتَ وصاحبك يا رسول الله ﷺ، فإن لم أجد بكاءً، تباكيت لبكائكما، رضي الله عنه وأرضاه، فمن عظمة حبّه لصاحبيه، لم يهن عليه أن يراهما يبكيان وهو لا يبكي.

-30-

عِمتَ مساءً يا صديق..

"لا تُدبّر لكَ أمرًا.. فأولو التّدبير هلكى".

لا تحاول أبدًا أن تقيسَ أحلامكَ على قدرِ مقدرتكَ، بل قسها دائمًا على قدرة الله تبارك وتعالى، وكلّما راودكَ هذا السّؤال الّذي دائمًا ما يشغلُ بالك:

- تُرى كيف أصلُ وأنا على هذا الحال؟!

حينَها ابدأ من جسدك، وانظر إلى ذلك الجسد الضّخم الذي خلقهُ اللهُ من نطفةٍ صغيرةٍ تكادُ لا تُرى بالعينِ المجرّدة، انظر إلى عظمةِ كل عضوٍ من أعضائه، إلى قلبكَ وكيف يحبّ، إلى عقلكَ وكيف يحلّلُ ويفكّر، إلى عينِكَ وكيف ترى، إلى أذنكَ وكيف تسمع، وغيرها الكثير.

وليزدادَ انبهاركَ أكثرَ فأكثر، انظرْ إلى عظمةِ إبداع الخالق في الكواكبِ والأكوانِ والمجرّاتِ، وإلى أمرٍ بسيطٍ أيضًا؛ انظر إلى حياتكَ السّابقة وكيف دُبِّرت، واسأل نفسكَ إن كنتَ ستنجو إلى اليوم على ما دبّرتهُ بحسابات عقلك مسبقًا؟!

اللهُ تعالى تولّى عنكَ كلّ هذا التدبير، فسلّم الأمر له.

إنّ اللهَ حييٌّ كريمٌ يستحي إذا رفعَ الرجلُ إليهِ يديهِ أن يردَّهما صفراً خائبتين.

- سيدنا وحبيبنا محمد رسول الله ﷺ

-31-

عِمتَ مساءً يا صديق..

تقول لي: "أنّ من يضمنُ وجودنا يؤذينا على راحته". أو كما صغتها أنتَ، فلا فرق بين المعنيين، ولتعلم يا صديقي بأنّ هنالكَ حقيقةً أخرى يغفلُ عنها الكثير، وهي أنّ لا أحدَ قادرٌ على أن يؤذينا كالّذين نحبّهم!

وقد تتعجّبُ من قولي الآن، وتقول: كيف هذا؟!

فأقول لكَ: اعلم يا صديقي أنّ الغريبَ قادرٌ على أن يؤذينا، لكنّهُ شخصٌ عابر! مجرّد غريبٍ!

والغرباء لا يسكنون عقولَنا ولا قلوبَنا، نراهم مرّةً أو مرّاتٍ قليلة، ومن ثمّ يطويهمُ الزّمانُ في أقصى نقطةٍ من ذاكرتنا البعيدة، قبل أن يصلَ أثرهم إلى قلوبنا، وكذلكَ جرحهم يكونُ مثلهم، مجرد جرحٍ غريبٍ عابر، نتذكّرهُ ليومٍ أو يومَين أو سنة، ومن ثمّ يُطوى ويُنسى.

لكنّ القريب أمرهُ مختلفٌ تمامًا، القريبُ هو ذلك الشّخص الّذي ملّكناهُ على قلبنا، توّجناهُ بحبّنا، قاسمناه رغيفَ الأسرار، وأدخلناه عقرَ الدّار، كنّا خدّهُ حينَ بكى، وبسمتهُ ساعةَ ما فرح، هو ذاكَ القريب.. ذاكَ الّذي تأصّلَ داخل قلوبِنا، وجرحهُ ذات الأمر يا صديق، لا يكتفي بذاكرتنا، بل يتأصّلُ كصاحبه داخل قلوبنا.

ولا شيءَ أبشعُ في هذه الدنيا من أن تحمل أطنانًا من اللهفة إلى شخصٍ تحبّه، ومن ثمّ يجابهكَ بالبرود .

لا شيءَ أبشعُ من أن تعطيه أثمنَ أوقاتك وإن كانت على حسابك، ومن ثمّ حينَ تحتاجه يجابهكَ ب:"لا" بكلّ برودٍ ودونَ أيّ تبرير.

لا شيءَ أبشعُ من أن يتخلّى عنكَ لكلامٍ سمعهُ من نمّام، أن يصدّقَ كلّ ما يُحكى عنك كبقيّة النّاس، وأنتَ الّذي كنتَ تراهُ كلّ النّاس.

لذلكَ عندما تقابَلُ بالأذى من ذاك القريب، تذكّر قولهُ تعالى: {وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ}

لا تكن مثلهُ أبدًا، جرّب بالبداية أن تقابل إساءتهُ بالإحسان:

- تودد لهُ حينَ ينساك.
- اعفُ عنهُ إذا أساءَ لكَ، فكلّنا خطّاؤون.
- كنْ سندهُ حينَ يبكي ولو تركلكَ وحيدًا وقت حزنك.
- افرح لهُ وإن أحسَسْت بغيرةٍ بدت منه وقت نجاحك.

لكن إذا تكرّرَ الأمرُ غادر، غادر قبل أن يصبح الخطأ جرحًا، لأنّ جرحهُ إن مسَّ قلبك فلن تُشفى منهُ للأبد.

مهما بلغَ إيمان الشخص فهو ضعيفٌ لحظة وقوع القدر، فسيدنا موسى عليه السلام عندما طلب اتباع الخضر ليتعلم منه كان جواب سيدنا الخضر له حينها: "إنّكَ لن تستطيعَ معي صبراً"، رغم أنّ سيدنا موسى كان من أولي العزم من الرسل، لكن حينَ انتهت القصة، وبانَ أنَّ السفينةَ خُرقتْ لكيلا تُسلب، وأنّ الغلام قُتل لكيلا يُرهق أهله بطغيانهِ، وأنّ الجدار بُني ليحفظ مال اليتيمين، اطمأنَ فؤاد موسى وسكن، فالمشهد في البداية مُفزع وصعب التحمل، لكن في نهاية القصة هنالك حتماً كنز من الطمأنينة.

-32-

عِمتَ مساءً يا صديق..

تمرُّ على المرء أوقاتٌ يشعرُ فيها بالفوضى!

يشعرُ أنّ حياتهُ كلّها تسير على غير هوادة!!

والتعلّق بالقشّة هو أوّل وسيلةٍ يلجأ إليها الغريقُ في مثل هذه الفوضى، لذلك تراهُ دائمًا ما يحاول أن يغيّر شيئًا ما في حياته.

وأنتَ تشعرُ اليوم أنّكَ وسط هذه الفوضى على أثر صدمةٍ قلبيةٍ "لا عضويّة" قد أثّرتْ بكَ.

تنظرُ إلى مرآةِ نفسكَ فتجدُ شخصًا مختلفًا عنك، فتتحسّسُ قلبك وتقول: لا! لا! هذا ليس أنا!

ها أنت اليوم شخصٌ آخر وقد ذهبت بسمتك، وضاع على أثرها شغفك، لقد توقّفت أيضًا عن المسير إلى الحلم، إلى أن صارت عاداتك اليوميّة القديمة هي الحلمُ الجديد بالنّسبة إليك.

تقفُ على أثر هذه الصّدمة وسط غرفتكَ، فتحاول ترتيب كلّ شيءٍ تصادفهُ أمامكَ!

تُرتّبُ السّرير، تصفُ الكتبَ المتناثِرة على الرّفّ، تعيدُ الأقلام إلى العلبة، تُعلّقُ أغراضك المبعثرةَ هنا وهناك!

تتّجهُ بعدها إلى خزانتِك لتُرتّبَ محاضراتك وتضعَ خطّةً دراسيّةً محكمةً لكلٍّ منها!

فترى بعدها أنّ الفوضى لم تنتهِ بعد، فتذهبُ إلى جوّالك، وتمسحُ المحادثاتِ القديمةَ الّتي أصبحَت كالقبو المهجور بعد أن تركَكَ أصحابُها لفترةٍ طويلةٍ من الزّمن، وتدخلُ بعدها إلى المعرض فتمسحُ الصّور الّتي التقطتَها وسطَ كآبتك!

وأخيرًا تضعُ هاتفكَ جانبًا والفوضى ما زالت تشغلكَ!

وتقول: كيف؟! كيف؟!

هذا لأنّ الفوضى في قلبكَ يا صديق!

ليست الفوضى في الكتب!

ولا في السّرير!

ولا في خزانتك!

ولا داخل جوّالك حتّى!

الفوضى: "ها هُنا" أيسرَ صدرك، داخلَ قلبك، تأبى أن تُرتّبَ بأيّ طريقة، وهذا ليس إلّا لأنّنا نحاولُ أن نتجاهلَ السّبب، فنعالجُ الأعراضَ بدل أن نعالجَ المرض.

كلُّ فوضى داخلَنا تبدأ من القلب!

بكلمةٍ كسرتنا!

بشوقٍ يحرقنا!

بفشلٍ قد أقعدنا!

بذنبٍ قد هزم ضعفنا!

وكلّها عبارةٌ عن تراكماتٍ قلبيّةٍ قد كُتمت في السّابق حتّى باتت أعراضها تظهر لنا اليوم!

{إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ}

في القرآن دواءٌ لكلِّ داء، ألم تحفظ كلمتي المعتادة؟!

يُريدُ اللهُ منّا أن نستعينَ على الدُّعاء بشيءٍ من القطران، وأن نعالج الداء لا أعراضه، يُريد منّا أن نلتفتَ دائمًا إلى السّبب!

يحبّنا إلى درجةٍ يخلق لنا فيها كلّ هذه الفوضى فقط لنشعرَ بضرورة التّغيير!

ألم تسمعْ من قبلُ بأنّ الألم الجسديَّ نعمة؟!

نعم نعمة!، فلولا الألمُ يا صديقي لماتَ المريضُ دون أن يدري بمرضه حتّى!

لكن من رحمة الله بنا أن جعلَ الألم علامةً للمرض لكي نشعر به ونعالجهُ في أسرع وقت.

فكلّ هذه الفوضى عبارةٌ عن أعراض يُرسلها اللهُ لكَ كي تتخلّص من المرض قبل أن يموت قلبكَ!

فتعالج الذّنب بالتّوبة..

والعلاقات المسمومة بالبتر..

وقعود الفشل بالهمّة والعمل..

فهوّن عليكَ، وسلِ الله أن يلمَّ شعثَ قلبك، وقم بعدها وفكّر ما السّبب؟!

حتّى تعودَ كما أنت بنسختِكَ القديمة الّتي لطالما أحببناها.

عن شعوري وشعورِك الدّاخليّ كتبت.

كان من دعاء النبي الكريم ﷺ:

"اللهم برّد قلبي بالثلج والبرد والماء البارد".

وما أحوجَ قلوبنا الساخنة إلى هذا الدعاء!

فاللهم آمين.

-33-

عِمتَ مساءً يا صديق..

هوّن عليكَ..

هوّن عليكَ يا صديقي..

لا تُوقفْ حياتكَ لأجل فشلكَ في أمرٍ ما..

نعم نعم!

راقِب الحياةَ من حولك

راقب كيف أنّها لم تتوقّف لأجل فشلكَ!

فلِمَ تُريدُ أنت التّوقّف؟!

ما زال قلبك ينبض!

والدّم في شراييكَ يسري!

لا يزالُ قلبكَ مصرًا على الحياة، فلِمَ تُريدُ أنتَ أن توقفهُ؟!

هو يريدُ أن يحيا.. يريد أن يعيش..

يريدُ أن يتحرّرَ من أغلالِ الحزن الّتي طوّقتهُ بها، يريدُ أن يقوم بالوظيفة الّتي سخّرهُ الله لأجلها!

فأخبرني لِمَ تريدُ أن ترتكبَ بحقهِ هذه الجريمة النّكراء؟!

هو قلبكَ!

نعم قلبكَ!

وليسَ قلبَ شخصٍ آخر!

فلِمَ تُحمّلهُ كلّ هذا اللوم؟!

أيحزنكَ فقدُ شيءٍ في هذه الدّنيا، وأنت مؤمنٌ بقضاء الله، واثقٌ بحكمته، مطمئنٌّ بوعوده؟!

أيحزنكَ فقدُ شيءٍ في هذه الدّنيا، وأنتَ تسمعُ قول الله تعالى: {إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ}؟!

أتحزنكَ تلكَ الأشياء الّتي تخسرُها والّتي تفشلُ بها، وأنت تعلمُ أنّها فانيةٌ هالكةٌ في دنيا فانية: {كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ}؟!

أيُّ شيءٍ هذا الّذي يستحقّ أن تقتلَ قلبكَ لأجلهِ أخبرني! حسنًا حسنًا..

إن كانَ هذا القلب لا يلزمكَ!

وإن كنتَ لا تبالي لأمره!

فهو غالٍ عندنا!

أيُسعدُك أن نخسرَ سعادتَنا بخسارة ضحكته؟!

أرجوك أفِق!

أرجوك!

أرجوكَ احفظ هذا القلبَ اللطيفَ الّذي زرعهُ اللهُ في جوفك..

أرجوك احفظ مُلكَ الله الّذي استودعهُ فيك!

أرجوكَ أفِق..

أرجوكَ أرجوك..

كُرمى لعيون مَن تحبّ!.

اللهُ لا يترك عبادهُ تائهين أبداً، حتى وإن كان طريق صبرهم طويلاً، فإنّهُ حينها يمدّهم بقناديلِ لطفٍ خفيّ منه، يُنير لهم الطريق ويُرشدهم لكي يرتقوا إلى مراتب إيمانية أعلى وأجل، طريق الصبر كلّهُ خير، ولو كُشف لنا الثواب الذي فيه، لأحببنا أن نُمضي أعمارنا فيه.

-34-

عِمتَ مساءً يا صديق..

في أواخر رمضانَ الماضي زرتُ أحد المعالِجين الفيزيائيّين من أجل استشارتِه بخصوص ألمٍ في ظهري، أريتُهُ حينَها بعض الصّور الشّعاعيّة القديمة لعمودي الفقري، فأخبرني بضرورة مراجعة أحد أطبّاء الجراحة العظميّة لشكّهِ بوجود التهاب فقراتٍ لاصق، مع احتماليّة الحاجة إلى صورةِ رنينٍ مغناطيسيٍّ للفقرات!

وبالرّغم من أنّنا لم ندرس مادة العظميّة بعد، لكنّني ومن خلال دراسة بعض المواد السّابقة، أعرفُ أنّ هذا المرضَ خطيرٌ بعض الشّيء!
أُصِبتُ وقتها بحالةٍ من الإحباط واعتراني بعضُ الغمّ، خصوصًا أنّ الطبيبَ الّذي أرسلني إليه لم يكن لديه موعدٌ فارغٌ قبل أربعة أيّام!
لكنّ الله يزرع ورودَ لطفِه في طريقي دائمًا، تجهّزتُ في اليوم المحدّد للموعد والقلقُ قد نهشَ قلبي، وفي طريقي للعيادة صادفتُ امرأةً مُسنّة قد غشيتِ السّكينةُ ملامحَها، أوقفَتني حينها فدلَلْتُها على الطّريق، ودعَت لي بدعواتٍ أثلجتْ صدري وجبرَت خاطري، وما أجمل دعاءهم.

في غرفة الانتظار التقيتُ بكتيّبٍ لطيف للشّيخ طاهر الجزائريّ رحمهُ الله، قرأتُ الكتيّبَ بنهمٍ واطّلعتُ على أسماء بقيّة الكتب، أعجبتني هذه اللفتةُ اللطيفةُ من الطّبيب، وقرَّرتُ أن أفعل مثلَه في عيادتي إن قدّر الله لي ذلك.

حينَ حانَ دوري، استقبلَني الطّبيب بابتسامةٍ ودودةٍ للغاية، سألني عن اسمي وحالتي وبقيّة تفاصيل القصّة السريريّة، وقام بعدها بالفحص السّريريّ وأعاد فحص الصّور الشّعاعيّة، وأخيرًا فرَّجَ عنّي -فرجَ اللهُ عنه- وأخبرَني أنّ الحالةَ عابرةٌ وأنّ شكوك المعالِج ليسَت في مكانِها ولله الحمد، أخيرًا أعاد لي أجر الكشف الطبّي وقال لي بكلِّ تواضعٍ وودّ:

- أنا لا آخذ أجر الكشف من طبيب.

كانت هنالك لافتةٌ على باب العيادة مكتوبٌ عليها:

"دبلوم جراحة اليد من فرنسا".

ولكن هل تصدّق بأنّ اللافتة لم تجذبني ولم تمنحني الثّقة المطلَقة بالطّبيب على الإطلاق!

ما جذبني وطمأنني هي تلك البسمةُ الودودةُ والتّواضع الرّفيع الّذي يحملهُ ذلك الطّبيب، وفهمتُ يقينًا يومها لِمَ قال رسولنا الكريم ﷺ:

"وتبسّمك في وجه أخيكَ صدقة".

فالأخلاقُ الرّفيعةُ تستطيعُ أن تفعلَ ما لا تفعلهُ أعظم الشّهادات.. ينجذب النّاس اليوم وينخدعون بكثرة العلم، فينبهرون بالشّهادات ويغضّون أبصارهم عن الأخلاق!

العلماء والمخترعون كُثرٌ اليوم، وشهادات الماجستير والدّكتوراه ولقب البروفيسور يمكن تحصيلهم ببعض التّعب، لكنّ الأخلاق والإخلاص عملةٌ نادرة، أفكّر دائمًا بأنّ "فلاشة" صغيرةً قادرةٌ على تخزين كلّ علم البروفيسور خلال خمسِ دقائق فقط، ويستطيع روبوتٌ مبرمَجٌ أن يقومَ بعمليّةٍ جراحيّةٍ يمضي الطّبيب سنواتٍ عديدة في تعلُّمِها، لكنّهم جميعًا لا يستطيعون أن يزرعوا البسمة في قلبي كما فعل هذا الرّجلُ الطّيّب!

وتذكّرتُ وقتها قول أمّ الإمام مالك لابنها -رحمهما الله- والّذي كتبتُ عنهُ قبل أيّام قليلة من زيارتي للطّبيب: "اذهب إلى ربيعة الرّأي فتعلّم منهُ أدبهُ قبل علمه".

وكذلك الدّكتور عمر نجحَ في أن يكون قدوةً لي في نصف ساعةٍ فقط، في حين لم يفعل كثيرٌ من الأطبّاء في سنواتٍ عديدة! فالأخلاق يكون أثرُها في الأفعال أضعافَ ما يكونُ في الأقوال.

أنتَ تُسلّمِ جسدكَ للطبيبِ الحاذق في العمليةِ الجراحية بكل اطمئنان، دون أن تسأله كيف سيُجري لك تلك العملية، واللهُ هو الشافي وهو طبيب السماواتِ والأرض، أليس من الأولى والأحق أن تُسلّمَهُ قلبك وأنتَ متيقنٌ بالشفاء؟!

-35-

عِمتَ مساءً يا صديق..

قرأتُ ذات مرّةٍ عبارةً في كتاب: "كليلة ودمنة"، وقد علقت في قلبي إلى اليوم:
"وقد تنكسفُ الشّمسُ والقمر إذا ما قُضيَ عليهما ذلك!".

انظر إلى الشمس متأملاً كِبر حجمها وشدّة وهجها والكواكب الكثيرة الّتي تدور حولها.
وإلى القمر أيضًا، متأملاً شدّة لمعانهِ وضيائه وهالة النّور الّتي يمنحها لمن حوله.
انظر كيف أنّهُ إذا ما نزلَ بهما القدر انكسفا على عظمتهما.

وأنت يا صديقي ..
يا من تحملُ شغفًا متوهّجًا كالشَّمس، ووجهًا مضيئًا كالقمر..
لِمَ تعتقدُ أنّكَ على أعتابِ النّهاية؟!
لِمَ تظنُ أنّ الفشل عارٌ سيُلازمكَ للأبد؟!
لِمَ تزعمُ أنّ حبال النّجاة قد قُطعت؟!

ها هما الشّمسُ والقمرُ آيتان من آياتِ الله، وقد خُسفا وكُسفا!

فهل سمعتَ عن كسفٍ أطفأ وهج الشّمسِ إلى الأبد، أو عن خسفٍ حرمَنا ضوء القمر، إنّما الخسف والكسف أقدارٌ تسري عليهما كما تسري المقدّراتُ على جميع البشر.

فهل عابَ الشّمسَ يومًا أن قد كُسفت؟!

أو لازم العارُ القمرَ بأن قد خُسف؟!

فهوّن عليك يا صديقي، وإن كنتَ الآن في فترةِ خسوفِ وجهك القمريّ، وكسوفِ شغفك الشّمسيّ، فاعلم أنّما هي أقدارٌ باطنُها فيه الرّحمة وظاهرُها من قِبَلِه العذاب، أقدارٌ لها أجلٌ وتمضي.

وغدًا يُنبئكَ شروق الفرج بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا، والحبّ كل الحبّ لك.

ومع كل فجر، هنالك طيٌّ لصفحاتٍ قديمة متعبة، لتَقلِبَ صفحة جديدة، تخطُّها بعملك أنت، ومع تنفُس الصبح بعد اختناق الليل، وبزوغ الشمس بعد مُبادلة القمر، ومع زقزقة ذاك العصفور، كُتِبَ لكَ شروقٌ جديد، بعمرٍ جديد، فانسَ صفحاتك القديمة، وركّز في كتابة صفحاتك البيضاء اليوم.

-36-

عِمتَ مساءً يا صديق..

يُرسل الله لنا الذّكرياتِ ليُذكّرَنا بعوضه وتوفيقه وخيرته، فلا نقنطُ ولا نيأسُ بعدها أبدًا، ظهرَتْ لي اليوم ذكرى نجاحي في الثّانويّة العامّة، وصراحةً هذه الذّكرى هي من أسعد لحظات عمري ولله الحمد، والمميّزُ في هذه الذّكرى ليس دخولي لكليّة الطّبّ فقط، إنّما درجاتي في الشّهادة الثّانويّة أيضًا.

حصلتُ وقتها بفضل الله على مجموع ألفين وثلاثمئة لا تنقص ولا تزيدُ درجةً واحدة، وفي ذلك العام كانت المفاضلاتُ قد ارتفعَت قليلاً وطلبوا حينها مجموع ألفين وثلاثمئة للسّنة التحضيريّة للكليّات الطبّيّة، وكان المجموعُ المطلوبُ مطابقًا تمامًا لمجموعي، لا يزيد جزءًا ولا ينقص.

الأمرُ المريحُ في القصّة هي الطَّريقةُ الّتي يقسمُ الله لنا بها أرزاقنا، تخيّل معي لو أنّ المصحّح قد غفلَ عن كلمةٍ واحدةٍ أو دقّقها تدقيقًا زائدًا خلال التّصحيح فخسرتُ جرّاء هذا الخطأ جزءًا واحدًا من درجاتي، إذَن لكنتُ الآن في كلّيةٍ غير كلّيّة الطّبّ، ولَتغيّر مصيري بأكمله!

تخيّل أنّ شخطةَ قلمٍ كانت قادرةً على أن تبدّل مصيري!

درجةٌ واحدةٌ فقط كانت كافيةً لأن تُحدّدَ مصيري الدّراسيّ، ولأن تنقلَني من مهنةٍ إلى أخرى، ومن هذه القصّةِ أنا دائمًا مطمئنٌّ حيال قسمةِ الله العادلةِ والدّقيقة، وأحببتُ أيضًا أن يصلَك شيءٌ من هذه الطّمأنينة والسكينة.

طريقةُ الدّرجةِ الواحدةِ هي طريقةٌ تجري على معظم أمور حياتنا، فإن كانَ لنا نصيبٌ في شيءٍ ما فسوف نأخذه ولو اجتمع الخلق بأجمعهم على أن يمنعونا منه.

وكما أنّنا نؤمن بهذا الأمر في العطاء، فعلينا أن نؤمن بأنّ مفهوم الدّرجة الواحدة ينطبقُ على المنع أيضًا، فالشّخصُ الّذي حصل على مجموعٍ أقلَّ من مجموعي بدرجةٍ واحدةٍ ليس بأقلَّ مني تعبًا ودراسةً، وقد نكون أنا وهو قد سعينا بنفس المجهود وبذلنا نفس التّعب، لكنّها قسمةُ الله وخيرتُه دائمًا وأبدًا.

وحاشاه أن يكونَ قد منعهُ هذه الدّرجة بخلاً منه، فهو أكرم الأكرمين وخالقُ السماوات والأرضين، وليس لأنّني أكثر صلاحًا منه، فهذه قسمةٌ دنيويّةٌ تجري على المؤمنِ والكافر على حدٍّ سواء، وحاشاه أن يكون قد منعَهُ شيئًا ليعذّبه به، فقد خلق الله أبانا آدم وأسجَد له الملائكة تكريمًا وتعظيمًا لبني البشر، فحاشاه ألف مرَّةٍ أن يكون المنعُ الدُّنيويُّ عذابًا لعباده.

لمَ منعَهُ إذاً؟!

- منعَهُ سبحانهُ وتعالى هذا الجزء لحكمةٍ سابقةٍ بالغةٍ منه.
- منعَهُ لأنّهُ يريده في المكان الأفضل.
- منعهُ لأنّهُ ربّما أفسدَ عليه هذا الجزء دنياه وآخرته.
- منعهُ لأنّ في المنع رحمةً وتهذيبًا.
- منعهُ لأنّهُ أراد أن يقيمهُ على الثّغر الّذي يصلحُ له من ثغور الدّين، فلربّما إن دخل الهندسة صار مهندسًا عالميًا ورفع اسم الإسلام عاليًا، ولو أنّهُ دخل الطبّ لما بلغ هذا المقام أبدًا، فالإسلام بحاجة إلى المهندسين وإلى الأطبّاء وإلى علماء الدّين وإلى النّجّارين والحدّادين والخبّازين، وكلٌّ واحدٍ منّا مقيمٌ على ثغرٍ من ثغوره.

وأخيرًا أريدُكَ أن تثقَ بحكمة الخبير البصير، الّذي يعلمُ ما لا نعلم ويرى ما لا نرى، وأن تعرفَ أنّهُ لن يفوتكَ أبدًا ما كُتبَ لكَ، وإن منعهُ عنكَ فوالله إنّكَ قد رُحمتَ حينَ ظنَنتَ أنّكَ قد حُرمت.

فالرّضا الرّضا.

لأحلامك إشراقة ليست ببعيدة، وعن تساؤلك عن تأخيرِها، فإنَّ الشمس لا ينبغي لها أن تدركَ القمر، فإذا جاءت من دون ليل يسبقها، فلن يكونَ حينها لنورها معنى، وكذلك ليلك العسير، سيُتبعُ بنهارٍ يسير.

-37-

عِمتَ مساءً يا صديق..

ولأنّ عقلي يأبى أن يتذكّر النّعم المسبَغة عليه، يرسِل اللهُ لي دائمًا رسالةً سماويّةً تجعلُ همّي الصّغير يتضاءلُ أمام عظَمةِ النِّعم الّتي أعيش في كنفها.

في الصّباح الباكر وبشكلٍ متكرّرٍ وأنا في طريقي المعتادِ إلى الجامعة، كنتُ أرى ذات الطّفل ينام على حافّة الطّريق، متّخذًا من خشونة الرّصيف سريرًا له.

اليوم رأيتهُ مجدّدًا بعد طول انقطاع، وبنفس الحالةِ التي كنتُ أراهُ فيها أيّام الصّقيع، كنتُ وقتها أرتجفُ وأنا أرتدي معطف الصّوف السّميك، وأتساءلُ في نفسي: سبحانك يا الله! كيف يحتمل هذا الطّفل صقيع الشّتاء بهذه الملابس الرّقيقة؟!

هذه الرّسالةُ السماويّةُ كانت كفيلةً دائمًا بأن تُذكّرني بحديث الحبيب المصطفى - صلّى اللهُ عليه وسلّم- مع كلِّ ضائقةٍ تعصفُ بي: "مَن أصبح منكم آمنًا في سربه، معافًى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنّما حيزَت له الدّنيا".

نعم!

لقد حيزت لي الدّنيا في بيتٍ يؤويني، وأنا فقط أشكو الهمّ والغمّ وضيق الحال وانقطاع الكهرباء.

لقد حيزت لي الدّنيا حينَما علَّمني الله وأكرمَني بطلب العلم ودخول الجامعة وغيري يصارعُ مرارةَ الجهل، وأنا فقط أشكو الضّيق والاكتئابَ وكثرة الامتحانات.

لقد حيزت لي الدّنيا حينَما أصبحتُ معافًى في جسدي، أغسل وجهي بكلتا يديّ وأسيرُ بكامل قوايَ على قدميّ، وأنا فقط أتذمّر من كثرةِ المشيِ وحالِ المواصلات والباصات.

فاللهمّ لك الحمدُ حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه، لك الحمدُ يا الله أن ذكّرتَني بعظيم نِعمك، فاغفر لي إن سخطتُ يومًا على قدرٍ ما ونسيتُ نعمكَ الكثيرة.

{وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ}

ومن ثم يبلغ فيكَ اليأسُ مبلغاً ما سبقَ أن قد بلغهُ من قبل، وكعادتهِ لا يتخلى عنك، لا يتركك تستكين لضعفك، ولا تركن ليأسك، تشعر أنّهُ يريدُ أن يشعركَ أنّ الأمر هيّن، أنّ الفرج قادم، أن يطمئنك بأنّ وساوسك باطلة، وأنّهُ ليس ببعيد، بل أقربُ إليكَ من حبل الوريد، فيرسلُ لك حينها شعاعاً مضيئاً يتسللُ إليك من غشاوة عينيك، شعلة خافتة توقدُ بها قنديل قلبك، ونوراً ساطعاً يستهلُ عتمة يأسك، نعم نظرة واحدة إلى السماء تفعلُ كل هذا! تلك النجمة المضيئة التي تبعد عنا ملايين السنين الضوئية هي من كانت أملي اليوم، ومن بعد كل نظرة ستوقنُ حتماً أنّ من أضاءَ تلك النجمة وساق لنا نورها، قادرٌ على أن يأتينا بنور الإجابة.

-38-

عِمتَ مساءً يا صديق..

من أكثر ما يُعينُ المرءَ على الرّضا بقسمة الله له، أن يعرفَ أنّ اللهَ يفتحُ على كلّ عبدٍ من عباده في مجالٍ ما، وعدم فهم تلك القسمة هو من أوّل أسباب السّخط على الأقدار.

فمن النّاس مَن يفتحُ اللهُ عليه في حِرفته، ومنهم من يفتحُ اللهُ عليه بالرّزق في تجارته مثلاً، ومنهم من يفتح اللهُ عليه بالعلم، ولا شكّ أنّ أعظمَ فتوحات العلم على الإطلاق هي أن يصطفيكَ اللهُ لعلوم القرآن والحديث.

وكمثالٍ واقعيٍّ نعيشهُ اليوم، تجدُ أنّ معيارَ النّجاح الأوّل دراسيًا هو الطّبّ أو الهندسة، ولو تفكّر المرءُ في هذا قليلاً لعرفَ أنّ التميُّزَ في الاختصاص هو النجاحُ الحقيقيُّ وليس الاختصاصُ بحدِّ ذاته، فكم من طبيبٍ ومهندسٍ قد طواه التّاريخ ولم يدرِ به أحد، وكم من متميّزٍ خلّدَتهُ صفحاتُ التّاريخ باختصاصٍ لا قيمة له عند النّاس:
{نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ}.

في يومٍ ما، ليس بقريبٍ يُخيّبُكَ انتظاره، ولا ببعيدٍ تستيئس قدومه، في قدركَ المناسب، ستجفُ دموعُ القدر، وترتسمُ على وجنتيكَ ضحكةٌ مُستبشرة، ستغدو أحلامك قصة ترويها لنفسك، وتتأملها فتبتسم، ثم تضحك، ثم تنهالُ منكَ دموعٌ، مِزاجُها فرحة، وخِتامها رضا، ستروي لك تِلكَ اللحظة حكمة القدر، وخيرة ربِّ البشر، حينَ تعيش بين تِلك التي استيئست منها، ستضحكُ على نفسكَ كيف بكيت، وتبكي على حالك كيف سخطت، سيُخجلكَ عطاؤه، ويُدهشكَ منعُه، إنَهُ الله، سيبين لكَ شرَّ استعجالك، وخيرَ تأخيره، فصبراً.

-39-

عِمتَ مساءً يا صديق..

إذا كُنتَ ممّن يقرأ الرّوايات، ستعي تمامًا حقيقةَ هذا الأمر، فأنت تتّفقُ معي أنّ أغلب القصص المذكورة فيها هي من وحي خيال الكاتب، الكاتبُ وحده من يضع القصّة، يكتبُها، يصوغُها، يضع الشّخصيّات والأماكن أنّى وكيف شاء!، وليس من حقّك أن تسأل، أو أن تعرف كل هذه الأشياء إلّا في نهاية القصّة، فستُكشفُ لك حقيقةُ كلّ شيءٍ في الختام.

فترى الأسئلة تتوارد على ذهنكَ وأنت تقرأ:

"أن لماذا وضع هذا الحدث؟!

ولماذا اختار ذلك الطّريق دون غيره؟!

لماذا عرَّضَ باسماً للحادث الفلانيّ ولماذا أتى آدم المشفى آنَذاك؟!"

ستدور ببالك جميعُ تلك الأسئلة، وستدفعُك فطرتك الفضوليّة لأن تقرأ وتقرأ بلا ملل، فقط لتعرف النّهاية!

حينَ تُكشف لك حقيقة هذه الأمور كلّها سترتاح وتطمئنّ ومن الممكن أن تبتسم، لروايةٍ فقط!

ستعرفُ أنّ الكاتب أرادَ مثلاً أن يُعرِّض باسماً لحادث ما، ليلتقي بآدم، الّذي سيُصبح صديقه فيما بعد، فيقلب حياته رأسًا على عقب، ولولا هذا الحادث لما وُجدت القصّة، ولما وُجدَ باسم وآدم.

سأهمسُ لك بالمغزى فاستمعْ لصدى ريشتي:

حياتُك قصّة، تختلفُ عن الرّواياتِ فهي شيءٌ أعظمُ بكثير، حياتُك مدوّنةٌ في اللوحِ المحفوظ، مصنوعةٌ من خالق الكون، من الله صاحب الخيرةِ ولهُ المثلُ الأعلى، تمامًا كأحداثِ الرّوايات تتطلّب حياتكَ الكثير من الحوادث والألم، لتكتسب الشّغف في أن تبحث عن السّعادة دائمًا، بلا كللٍ ولا ملل، لأنَّكَ مفطورٌ على الشّغف.

ونسألكَ يا الله تلكَ النهايات المُعطرة بمسكِ الختام والمملوءة بمزاج الفرحة والرضا.

عِمتَ مساءً يا صديق..

تمرُّ بالإنسانِ أمورٌ خارجةٌ عن طاقته وإرادته، فيشعرُ لوهلةٍ بالعتمة، شعور أنّ أضواء الكوكبِ على كثرتها تأبى أن تعطيَهُ ولو قنديلاً خافتاً ليُضيءَ به قلبه، وتلك هي أقسى أنواع الانطفاء؛ انطفاء القلب، وأنت الآن، تتكئُ برأسكَ على يدكَ منتظراً أمراً ما أن يحدث،
وجلُّ ما تتمنّاه هو أن يأتيكَ أحدهم بقبسٍ ليوقدَ النّورَ في قلبكَ مرّةً أخرى..
لذلك قررتُ أن أكونَ أنا هذا الشخص، في هذا الكتاب الّذي كُتِبَ خصيصاً لقلبك.

طالبُ طبّ وقع في حبّ الكتابة من النّصّ الأوّل، ولا يزال يغرق في عشقها أكثر فأكثر..
كاتبٌ روائيٌّ سوريّ، مؤسّس لفريق ريشة طالب طب وكاتب لدى منصة سماعة حكيم الإعلامية.
"مع المحبرة إلى المقبرة"
صدر للكاتب: الحب فلسفةٌ قلبية.